الباب الثامن

انتشار الإسلام بين المغول والتتار(*)

(*) لا بأس من أن نشير هنا إلى الفرق بين اللفظين: «تتر» و«مغول» وإلى التطورات التي داخلت كلًا منهما. فكلمة تتر تختلف بالمعنى العام باختلاف العصور: فقد أطلق هذا اللفظ على جماعتين من قبائل التتر في نقوش الأوخون التركية Turkish Orkhon التي ترجع إلى القرن الثامن الميلادي، كما أعلق هذا الاسم على المغول عامة أو على فريق منهم خاصة. وفي جميع الفتوحات المغولية في القرن الثالث عشر الميلادي كان الفاتحون يسمون بالتتر في كل مكان نزلوا فيه، سواء أكان في الصين أم في البلاد الإسلامية أم في بلاد الروسيا وغرب أوروبا. ويسمي ابن الأثير أسلاف جنكيز خان باسم التتر، وهم التتر الأول، وكانوا مشهورين عند قدماء اليونان باسم سكيثيا "Scythia" أو سكوتيا. ولم يظهر اسم المغول في عالم الوجود حتى القرن العاشر؛ ومن المرجح أنه أطلق على تلك العشائر التي انضوت تحت لواء زعيم إحدى قبائلهم، وكان يحمل ذلك الاسم، ثم أخذ لنفسه السيادة على بقية العشائر المتحالفة، ومن ثم أطلق اسم البعض على الكل..(Lane- Poole: Muh. Dyn. P. 200)

على أن بعض المؤرخين يرون أن لفظ «مغول» لم يكن معروفًا في خارج البلاد التي كانت تسكنها قبائل الرحالة على حدود صحراء جوبي قبل القرن الراع الهجري (العاشر الميلادي)؛ كما يقولون باحتمال إطلاق هذا اللفظ على جميع هذه القبائل، حتى امتد نفوذ رجل منهم تسمى بهذا الاسم على جميع تلك العشائر المتحالفة. وقد انتقلت قوة من قوى المغول الحربية إلى بلاد آسيا الصغرى، وكان أعقابهم (الذين صاروا أراكا بلا شك) يسمون بالتتر السود Kara Tatar، وقد عاشوا عيشة بدوية وقت حملات تيمور لنك في البلاد الريفية الواقعة بين أماسيا Amasia وقيصرية. وكان عددهم يناهز الثلاثين ألفًا أو الأربعين ألف أسرة. وقد نفاهم تيمورلنك إلى أواسط آسيا، فأنزلهم بايزيد الثاني العثماني بعض الأماكن في بلاد كشغر وخوارزم، وقد عاد هؤلاء التتر السود بعد وفاة تيمور إلى بلاد آسيا الصغرى واستقروا بها من جديد.

كذلك نرى في الروسيا وشرق أوروبا اسم التتر يطلق غالبًا على جميع الشعوب التركية ما عدا العثمانيين. ويرى بعض المؤرخين من المسلمين أن التتر شعب كبير من الأمة التركية، ومنه تفرعت معظم بطونها وأفخاذها، وهو مرادف للترك عند الفرنجة، حتى إنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تترًا، ومنهم العثمانيون والتركمان. وقد شمل هذا الاسم (تتر) جميع المغول وبخاصة المنكوس Manchus كما كانت الحال في الصين.

وأما كلمة تتر بالمعنى الخاص فهي اسم لشعب معين إذ لا تطلق إلا على سكان حوض نهر الفلجا من بلاد قزان Kazan إلى استراخان، وكذا على سكان شبه جزيرة القرم، وجزء من سيبريا ممن يتكلمون اللغة التركية. ويظهر أن الشعوب التي كانت مغولًا في الأصل واللغة كانت تسمى نفسها بالتتار. وقد استبدلت كلمة تتر بعد جنكيز خان في بلاد منغوليا وأواسط آسيا بكلمة مغل Moghul، ولا يزال لفظ مغل مستعملًا إلى اليوم في بلاد أفغانستان بين أشقاب المغول الذين لا يزالون محتفظين بلغتهم حتى الآن.

وقد أدخل جنكيز خان تلك التسمية رسميًا في بلاده. على أن كلمة Mongol لم تسد قط في معظم البقاع الغربية من إمبراطورية المغول رغم دخولها رسميًا في تلك البلاد، كما نعلم ذلك من الرحالة الأوروبيين مثال يوحنا بيان الكاربيني John of Pian El Carpini ووليم روبروك William of Rubruck وغيرهما.

لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطبًا أشد هولًا من غزوات المغول؛ فقد انسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من فتن الجبال، واكتسحت في طريقها المراكز الإسلامية وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة، تاركين وراءهم من تلك البلاد صحراوات خالية وأطلالًا بالية، وكانت تقوم فيها قبل ذلك القصور الملكية الفخمة المحاطة بالحدائق الغناء والمروج الخضراء. وبعد أن تحول جيش المغول عن مدينة هراه، خرج أربعون من أهليها من مخبئهم، فرارًا من الموت. وكان هؤلاء التاعسون هم البقية الباقية من سكانها الذين يربو عددهم على مائة ألف، وقفوا مهطعين مقنعي رؤوسهم، يبكون أطلال مدينتهم، وقد أخذ الفزع والهلع من نفوسهم كل مأخذ. وفي مدينة بخارى، التي اشتهرت برجال العلم والورع، اتخذ المغول من مساجدها المقدسة إصطبلات لخيولهم، ومزقوا المصاحف ووطئوها بدوابهم؛ كما سبوا من نجا من الأهلين من القتل، وجعلوا مدينتهم رمادًا تذروه الرياح. وكذلك كان مصير مدينتي سمرقند وبلخ وغيرهما من أمهات مدن آسيا الوسطى، التي كانت من قبل فخر الحضارة الإسلامية، وموطن الأولياء وكعبة العلوم، كما كان ذلك أيضًا مصير بغداد، التي ظلت قرونًا عدة حاضرة الدولة العباسية.

وإن المؤرخ المسلم ليقشعر بدنه حين يروى هذه الفظائع، حتى أن ابن الأثير قد أخذته نفس تلك القشعريرة حين وصف لنا غارات المغول حيث يقول (†): «لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها كارهًا لذكرها، فأنا أقدم إليه (رجلًا) وأؤخر أخرى. فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فياليت أمي لم تلدني، ويا {لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا}[1]، إلى أن حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف؛ ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعًا، فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين. فلو قال قائل منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقًا؛ فإن التواريخ لم

(†) ذكر ابن الأثير ذلك عند كلامه على حوادث سنة ٦١٧هـ.

(١) سورة ١٩ آية ٢٣.

تتضمن ما يقابلها ولا ما يدانيها. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس. وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرّب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس؟ وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة»[1].

ولكن لم يكن بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده التالد، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه. ويرجع الفضل في ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين كانا يحاولان إحراز قصب السبق في ذلك المضمار. وليس هناك في تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب، وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، كل ديانة تنافس الأخرى، لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة، الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين في جميع الأقطار والأقاليم.

وقبل أن نشرع في سرد أخبار هذا النزاع، نرى من الحسن، لكي نتفهم ما يأتي بإيجاز، أن نلقي نظرة على أجزاء إمبراطورية المغول بعد وفاة جنكيزخان عندما انقسمت أقسامًا أربعة بين أولاده الأربعة. فقد خلفه أجتاي[2] Ugutay، ثالث أولاده، الذي خلف أباه خاقان، وقد آل إليه الجزء الشرقي من الإمبراطورية، الذي ضم إليه قوبيلاي فيما بعد، كل أرجاء بلاد الصين. وملك جَغَطاي ثاني أولاد جنكيزخان الجزء الأوسط، وحكم باتو بن جوجي أكبر أولاد جنكيزخان الجزء الغربي، وتلقب بلقب خان القبلية الذهبية The Khan of the Golden Horde، وحكم تولوي رابع أولاد جنكيزخان بلاد فارس التي ضم إليها هولاكو، مؤسس أسرة إيلخانات المغول في هذه البلاد، جزءا عظيمًا من آسيا الصغرى.

---

(1) ابن الأثير جـ١٢ ص٢٤٣– ٢٤٤.

(2) أنار تعيين أجتاي (٦٢٤– ٦٣٩هـ = ١٢٢٧– ١٢٤١م) خليفة لأبيه جنكيزخان أتباع أخيه جغطاي، لمخالفة ذلك لتقاليد المغول التي تقضي بأن يعين أكبر الأولاد سنا.

كانت الشامانية Shamanism الديانة القديمة للمغول، الذين كانوا، على رغم اعترافهم بإله عظيم قادر، لا يؤدون له الصلوات، وإنما كانوا يعبدون طائفة من الآلهة المنحطة، وبخاصة تلك الآلهة الشريرة التي كانوا يتقدمون إليها بالقرابين والضحايا، لما كانوا يعتقدونه فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم، كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم. ولكي يوفق المغول بين هذه القوى السماوية والعالم السفلي، كانوا يلجئون إلى القسيسين، وهم الشامان Shamans والسحرة، أو إلى رجال الطب، الذين كانوا يعتبرونهم ذوي نفوذ خفي وسلطان غريب على عناصر الموتى وأرواحهم. ولم يكن دينهم معدودًا من تلك الأديان التي تستطيع أن تقاوم طويلًا جهود هذه الأديان الكثيرة الأتباع والأنصار ذات اللاهوت المنظم الذي يملك قوة الإقناع وسد حاجات العقل، وذات الهيئات المنظمة للمعلمين الدينيين. ومن ثم تأثَّر المغول بمدنيات تلك الشعوب، وخرجوا عن بربرية بداوتهم الأولى، حين وجدوا أنفسهم جنبًا إلى جنب مع هذه الأجناس ذات الديانات الراقية.

وقد اتفق أن كانت الشعوب التي اختلط بها المغول على أثر فتوحاتهم، تضم بين أفرادها عددًا كبيرًا من البوذيين والمسيحيين والمسلمين، وقد تنافس أتباع تلك الديانات الثلاث التبشيرية الكبرى لتحويل أولئك الفاتحين إلى دينهم. ولما هدأت ثائرة المغول الذين كانوا يدينون بالشامانية، وتركوا التخريب والتدمير اللذين امتازت بهما غزواتهم، ظهروا بمظهر التسامح مع أهالي الديانات الأخرى، فأعفوا قسيسيها ودعاتها من الضرائب، كما منحوهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية.

فكان قساوسة البوذيين يقومون بمناظرات دينية مع قساوسة المغول الشامانيين في حضرة جنكيزخان (١٢٠٦– ١٢٢٧م)، كما كان البوذيون والمسيحيون وأئمة المسلمين محل العطف والرعاية في بلاد مانجوخان (١٢٤٨– ١٢٥٧م) وقوبيلاي (١٢٥٧– ١٢٩٤م)[1]. وفي عهد هذا الأخير بدأ المغول في بلاد الصين يذعنون للمؤثرات الفعالة التي

(1) William of Rubruck, pp. 182, 191, c. d'Ohsson, tome ii. P. 488.

أحدقتها البوذية المنتشرة حولهم. حتى إذا جاء القرن الرابع عشر، يظهر أن الديانة البوذية كانت قد تسلطت على قلوب المغول وأصبحت ذات سلطان عظيم على نفوسهم[١].

ويرجع الفضل في تحويل الناس إلى البوذية إلى رجال الدين Shamans في بلاد التبت الذين ظهروا أكثر الناس حماسة في هذا النشاط الذي يقوم على الدعوة إلى الإسلام، ولا يزال أهالي منغوليا حتى الوقت الحاضر يتمسكون بأهداب هذا الدين، كما هي الحال عند الكلموك Kalmuks الذين هاجروا إلى الروسيا في القرن السابع عشر الميلادي.

ومع أن البوذية استطاعت أخيرًا أن تجعل لنفسها المكانة العليا في الجزء الشرقي من إمبراطورية المغول، لم يكن نفوذ الكنيسة المسيحية بحال قليل الشأن أول الأمر، فكان يجيش في نفوس رجالها آمال كبيرة وأطماع بعيدة في تحويل المغول إلى هذا الدين. ولقد حمل المبشرون النسطوريون في القرن السابع الميلادي تعاليم الدين المسيحي من الغرب إلى الشرق، عبر آسيا حتى شمال الصين. وكانت جماعاتهم المبعثرة لا تزال تقيم في هذه البلاد في القرن الثالث عشر. ويزعم لعض المؤرخين أن القسيس يوحنا المشهور Prester John، الذي كان يحيط باسمه كثير من أساطير القرون الوسطى، كان رئيس القرايت Kara'its، وهم قبيلة مسيحية تتارية كانت تعيش جنوبي بحيرة بيكال. ولما غزا جنكيزخان هذه القبيلة، تزوَّج بإحدى بنات رئيسها إذ ذاك، على حين تزوج ابنه أجتاي من نفس هذه الأسرة.

وأما كيوك بن أجتاي فإنه، وإن لم يعتنق الدين المسيحي، أظهر كثيرًا من العطف على ذلك الدين الذي كان يدين بعقائده رئيس وزرائه وأحد كتابه. وكان القساوسة النسطوريون محل رعايته السامية، في الوقت الذي استقبل في بلاطه السفراء من قبل البابا إنوسنت الرابع .Innocent IV[٢]. وكانت السلطتان المسيحيتان في الشرق والغرب تتطلعان إلى المغول، لمساعدتهما في حروبهما مع المسلمين. وكان هيتون Hayton ملك أرمينية المسيحي هو العامل الرئيس في إقناع مانجوخان (١٢٤٨– ١٢٥٧م) بإرسال

---

(١) De Guignes, tome iii. Pp. 200, 203.

(٢) Id. tom iii. P. 115.

تلك الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولاكو[1] (١٢٥٦– ١٢٦٥م)، الذي حملته زوجته المسيحية بما كان لها من نفوذ، على أن يظهر عطفًا شديدًا للمسيحيين، وللنساطرة منهم بوجه خاص.

ومن ثم اعتنق كثير من المغول الذين احتلوا بلاد أرمينية وجورجيا، الدين المسيحي، وعُمِّدوا على أيدي مسيحي هذه البلاد[2]. وقد ولدت الأقاصيص العجيبة التي كانت تشيد بذكر عظمة القسيس يوحنا وفخاره، والتي ألهبت خيال أهالي أوربا الوسطى، الاعتقاد بأن المغول كانوا على المسيحية. وكان يزيد من قوة هذا الاعتقاد تلك الأخبار الباطلة التي وصلت إلى أوربا عن تحول بعض أمراء المغول على اختلافهم إلى المسيحية، وعن تحمسهم في الدعوة لهذا الدين والانتصار له. وكان من أثر ذيوع هذه الأخبار أن أرسل القديس لويس St. Louis وليم روبرك William of Rubruck سفيرًا من قبله إلى الخان الأعظم يستحثه على مواصلة جهوده لنشر الدين المسيحي؛ على أنه سرعان ما تبين أن هذه الأخبار لم تستند إلى أي أساس من الصحة، على الرغم من أن وليم روبرك قد وجد أن المسيحية كانت محل التسامح في بلاط مانجوخان، وأن اعتناق عدد قليل من المغول هذا الدين، قد جعل القسيسين المسيحيين يعقدون الآمال على مواصلة نشر هذا الدين.

ولكن ظهور الاختلافات الدينية بين المسيحيين من اللاتينيين والإغريق والنسطوريين والأرمن، وامتدادها إلى وسط معسكر المغول ذاته، قد جعل الأمل ضئيلًا في إحراز نجاح أكبر من ذلك النجاح. ومن المحتمل أن هذه الحاجة الملحة إلى قيام الاتحاد بين المبشرين بالمسيحية هي التي جعلت جهودهم بين المغول أمرًا يسيرًا جدًا، حتى إنه بينما كانت الطوائف المسيحية تتناحر فيما بينها، كان كل من البوذية والإسلام يوطد قدمه في بلاد المغول. وقد دفعت أوهام بابا رومة ودعاويه العريضة أولئك الفاتحين لنصف العالم، والشديدي الأنفة والكبرياء، أن يعدلوا عما كانوا يحبون به رسله من ذلك العطف الذي مالوا إلى إظهاره لهم أول الأمر، كما ساعد غير ذلك من الأسباب على إخفاق حركة

---

(1) Id. P. 125. Cahun, p. 391.

(2) Klaproth, p. 204.

التبشير التي قامت بها الإرساليات الرومانية[١].

وأما النسطوريون الذين كانوا ظهروا في ذلك المضمار أولًا، فيظهر أنهم بلغوا درجة من الانحطاط والجمود أعجزتهم عن الاستفادة من هذه الحال. ويقول وليم روبرك[٢] عن النسطوريين في بلاد الصين، إنهم كانوا شديدي الجهل، وإنهم لم يستطيعوا حتى فهم كتب صلواتهم التي كانت مدونة بالسريانية. كما يرميهم هذا الكاتب بشرب الخمر والفسق والجشع، ثم يوازن بين حياتهم وحياة القسيسين من البوذيين موازنة ليست في مصلحتهم البتة. أما أسقفهم فكان لا يزورهم إلا لمامًا، حتى لقد حدث أنه لم يزرهم إلا مرة واحدة في مدى خمسين سنة؛ وكان في هذه المناسبات يقوم برشم جميع الأطفال من الذكور حتى الأطفال الذين كانوا لا يزالون في المهد.

ويقول وليم روبرك أيضًا إن القسيسين كانوا يتاجرون بالمناصب الدينية، ولا يبالون بجمع الثروات من وراء تعليم طقوس الكنيسة، ويؤثرون جمع المال على نشر تعاليم الدين[٣].

وفي الأجزاء الغربية من إمبراطورية المغول، حيث تطلع المسيحيون إلى هذه القوة الناشئة لتساعدهم في الحروب التي شنوها على المسلمين وتضمن لهم امتلاك الأراضي المقدسة، كان الحلف الذي أبرم بين المسيحيين وإيلخانات المغول في فارس قصير الأمد، إذ أن هذه الانتصارات التي أحرزها الظاهر بيبرس سلطان المماليك في مصر (١٢٦٠–١٢٧٧م)، ومخالفته مع بركة خان (+) (١٢٥٦– ١٢٦٦م) قد دفع إيلخانات فارس إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة. وقد أساء إلى سمعة المسيحيين في غرب آسيا ما ارتكبه

---

(١) D'Ohsson, tome ii. Pp.226- 7. Chaun p.408, sq.

(٢) يقول يول Yule عن هذا الكاتب: وقد أمدنا بعبارة تقدح في آداب رجال كنيستهم وأخلاقهم. وهي أحق بالتقدير من أمثال تلك الأحكام التي ينظر إليها كما ينظر إليها المنشقون عادة، إذ أن عبارة Rubruquis تجعلنا نميل إلى الظن بأن الذي كتبها كان رجلًا قد استكمل ضروب الأمانة والذكاء. Cathay and the Way Thither, vol. i. p. xcviii.

(٣) William of Rubruck, pp. 158- 9.

(+) ملك القبيلة الذهبية.

إخوانهم في الدين في دمشق وفي غيرها من مدن الشام من الفظائع في تلك المدة القصيرة التي أقامها بين ظهرانيهم مغول فرس الذين أولوهم عطفهم ورعايتهم[1].

وطالما ارتكب أتباع هاتين الديانتين كثيرًا من ضروب الوحشية في أثناء ذلك النضال الذي قام بين المغول والمسلمين في بلاد الشام. ولنضرب للقارئ مثلًا مما حدث في منتصف القرن الثالث عشر، كما رواه الجوزجاني الذي يزعم أنه سمع هذه الحكاية حيتن كان في دلهي. على لسان رجل يدعى السيد أشرف الدين، وكان قد قدم هذه المدينة من سمرقند: "ومن ثم حكى السيد الأجل أن أحد المسيحيين في سمرقند دخل في ساحة الإسلام، فأحاطه أهل الورع من المسلمين في هذه المدينة بالرعاية، وأحلوه من أنفسهم محل الاحترام والإجلال، ووالوا عليه الخيرات.

وإذا بأحد رجالات المغول من الكفار ببلاد الصين يصل إلى سمرقند، وكان كبير النفوذ عظيم الجاه، كما كان ذلك اللعين يميل إلى المسيحية؛ فجاء المسيحيون في هذه المدينة إلى ذلك المغولي، وبثوه شكواهم قائلين: "إن المسلمين يحرضون أولادنا على التحول عن المسيحية، ويحولون بينهم وبين المسيح عليه السلام، ويدفعونهم إلى اعتناق دين المصطفى عليه السلام. وإذا لم يسد هذا الباب في وجه المسلمين تحول أبناؤهم جميعًا عن المسيحية. فدبر بما لك من قوة وسلطان حلًا لقضيتنا. فأمر المغولي بإحضار الشاب الذي تحول إلى الإسلام، وحاولوا إغراءه بالعدول عن دينه الجديد بالرفق والمال والثراء، ولكنه أبى أن يرتد عن دينه، وأن ينزع عن قلبه وروحه هذا الثوب الجديد، وهو عقيدة الإسلام. ومن ثم ضاق الحاكم المغولي بهذا الشاب، وأخذ يتحدث عن العقاب الصارم؛ فسلط كل ما في استطاعته من ألوان العقاب أو ما دبره من صنوف القسوة على هذا الشاب الذي لم يرتد عن دينه بسبب حماسته البالغة لدين الإسلام. ولم تستطع ضربة ذلك الكافر العنيد أن تجعل جرعة الدين اللذيذة تفلت من يده. ولما ظل الشاب ثابتًا على الدين الحق، ولم يكترث للوعد والوعيد اللذين لقيهما من هذه الجماعة المفسدة، أمر

[1] المقريزي: (٢) المجلد الأول، القسم الأول ص٩٨، ١٠٦.

المغولي اللعين بإنزال العقاب بهذا الشاب أمام الملأ؛ وقد فارق هذا العالم وهو في سعادة الدين – أجزل الله له المثوبة والأجر!

وكان من أثر ذلك أن حل اليأس والخوف بجماعة المسلمين في سمرقند، ورفعت ظلامة مدعمة بشهادة الزعماء وثقات المسلمين الذين كانوا يقيمون بسمرقند، وتقدمنا بهذه الظلامة إلى معسكر بركة خان، وقدمنا بين يديه وصفا لسيرة المسيحيين وأخلاقهم في تلك المدينة. وقد تجلت هذه الحماسة للدين الإسلامي في ذهن ذلك الحاكم على أنه دين مثالي، وأصبح الدفاع عن الحق ذا سلطان عظيم على ميوله. وبعد أيام تلقى بركة خان هذا السيد بمظاهر التكريم، واختار طائفة من الأتراك والأشخاص الذين يوثق بهم من زعماء المسلمين، وأمرهم بأن يذبحوا جماعة المسيحيين الذين كانوا قد ارتكبوا ذلك الظلم الشنيع، وأن يبعثوا بهم إلى الجحيم. ولما صدر هذا الأمر إليهم، احتفظوا به، حتى إذا اجتمعت تلك الطائفة البائسة في الكنيسة، قبضوا عليهم جميعًا، وقتلوهم عن آخرهم، وبعثوا بهم إلى جهنم، وأحالوا الكنيسة أطلالًا بالية مرة أخرى[1]».

ويظهر أنه لم يكن من اليسير أن منافسة الإسلام في مستهل الحكم المغولي غيره من الديانات القوية كالبوذية والمسيحية كانت عملًا بعيد المنال؛ إذ أن المسلمين كانوا قد قاسوا أكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذي صحب غارات المغول؛ وإن معظم هذه المدن التي كانت حتى ذلك الحين مجمع السلطة الدينية وكعبة العلم في الإسلام في القارة الأسيوية، قد أصبح معظمها أطلالًا دارسة، حتى إن الفقهاء وأئمة الدين الأتقياء كان نصيبهم القتل أو الأسر[2].

ومن بين حكام المغول الذين عرفوا عادة بتسامحهم نحو الأديان كافة جماعة كانت

---

(1) الجوزجاني ص ٤٤٨ – ٤٥٠ Raverty, pp. 1288-90

(2) وقد بلغ من سوء المعاملة الوحشية التي لقيها هؤلاء أن رائضي الخيول من أهالي الصين كانوا إذا عرضوا أشباحًا، أظهروا البشر والحبور في صلف وإعجاب بعرض صورة تمثل رجلًا مسنًا ذا لحية بيضاء، يجره حصان قد ربط ذيله برتبة هذا الرجل. وإنما كأن هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف كان يتصرف فرسان المغول في معاملتهم للمسلمين (Howorth, vol. i, p, 159).

تظهر الكراهية للدين الإسلامي على درجات متفاوتة، فقد أمر جنكيز خان بقتل كل من يذبح الحيوانات علي النحو الذي قرره الإسلام، ثم سار على نهجه قوبيلاي، فعين مكافآت لكل من دل على من يذبح بهذه الطريقة، واضطهد المسلمين اضطهادًا عنيفًا دام سبع سنين، حتى إن كثيرًا من المعدمين وجدوا في سن ذلك القانون فرصة لجمع الثروة، واتهم الأرقاء مواليهم بهذه التهمة لكي يحصلوا على حريتهم[1].

وقد عانى المسلمون أقسى ضروب العسف والشدة في عهد كيوك (١٢٤٦ – ١٢٤٨م) الذي ألقى بزمام أمور الدولة إلى وزيريه المسيحيين، والذي امتلأ بلاطه بالرهبان من المسيحيين[2].

وقد أورد الجوزجاني، وهو مؤرخ معاصر، العبارة التالية، وهي تبين نوع المعاملة التي تعرض لها أحد فقهاء المسلمين في بلاط كيوك: «فقد روى بعض الثقات أن كهنة البوذية كثيرًا ما كانوا يوغرون صدر ذلك الأمير على المؤمنين ويحملونه على اضطهادهم. وكان في هذه البلاد أحد أئمة المسلمين، وهو نور الدين الخوارزمي... وقد التمس من كيوك بعض العلمانيين وقساوسة المسيحيين وفريق من كهنة البوذية من عبدة الأوثان، أن يستدعي ذلك الإمام ليناظروه ويحاجوه، طالبين منه إقامة الحجة على تفوق الدين الإسلامي وإثبات رسالة مُحَمَّد، وإلا كان مصيره القتل إذا أعيته الحجة. وقد أجابهم الخان إلى طلبهم وبعث فيهم طلب الإمام، وطرحت على بساط المناقشة مسألة صحة دعوة مُحَمَّد النبوة وسلوكه في حياته، مع موازنته بسلوك غيره من الأنبياء.

ثم لما كانت أدلة هؤلاء الملاعين ضعيفة، خالية من قوة الحق، نفضوا أيديهم من تلك المساجد بالبراهين والحجج ورسموا خطة من خطط الظلم والسخط على صفحات ذلك التدبير الذي عقدوا العزم على تنفيذه، فسألوا كيوك خان أن يأمر هذا الإمام بأن يسجد سجدتين وفق قواعد الشريعة الإسلامية وتعاليمها، حتى تتبين أمامهم وأمام الخان

---

(١) Raverty, p. 1146, Howorth, vol. i, pp, 122, 273. ولم يلغ ها القانون إلا بعد أن امتنع التجار المسلمون من زيارة البلاط وتأثرت التجارة من ذلك القانون.

(٢) Howorth, vol. i, p, 165.

حركات عباداتهم غير المستملحة. فأمر كيوك ذلك الإمام والمسلم الآخر الذي كان معه بأداء الصلاة حسب الأوامر الدينية المعروفة عند المسلمين.

«فلما خر الإمام الورع والمسلم الذي كان معه على الأرض ساجدين، قام بعض الكفار الذي دعاهم كيوك، وأسرفوا في إيذائهم، وأخذوا يضربون رءوسهم في الأرض في شدة وعنف، وافترقوا معهم بعض الأعمال المخزية. على أن ذلك الإمام الورع لم يأبه لكل هذا العنت والمضايقة، وأدى الصلاة وأدابها من غير أن يقطعها. ولما انتهى الإمام من صلاته وسلم، شخص ببصره إلى السماء وقال {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[1]. ثم طلب إلى كيوك أن يأذن له بالانصراف؛ وعاد إلى بيته[2].

وقد اضطهد أرغون (١٢٨٤– ١٢٩١م) رابع إيلخانات المغول في فارس، المسلمين في بلاده، وصرفهم عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية؛ كما حرم عليهم الظهور في بلاطه[3]. على أنه بالرغم من جميع المصاعب، أذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة[4] آخر الأمر لدين هذه الشعوب التي ساموها الخسف وجعلوها في مواطئ أقدامهم. ولسوء الحظ ألاَّ يلقي التاريخ إلا ضوءًا يسيرًا على تقدم حركة الدعوة الإسلامية هذه، ولم يبق لدينا إلا قليل من البيانات الضافية عن إسلام بعض أشخاص كانوا أعظم شأنا. ولا بد أن يكون هناك كثير من أنصار النبي قد انتشروا في طول إمبراطورية المغول وعرضها، مجاهدين في طي الخفاء لجذب الكفار إلى حظيرة الإسلام.

ففي عهد أجتاي (١٢٢٩– ١٢٤١م) نقرأ عن إسلام بوذي يدعى Kurguz وكان حاكمًا على بلاد الفرس من قبل المغول[5]. وفي عهد تيمور خان (١٣٢٣ – ١٢٢٨ م) كان آنئندا Ananda حفيد قوبيلاي (١٢٥٧ – ١٢٩٤م) وأمير كانسو

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٥.

(٢) الجوزجاني ص ٤٠٤ – ٤٠٥؛ Raverty, pp. 1160. Sqq.

(٣) De Guignes, vol. iii, p. 265.

(٤) وفي القرن الثالث عشر كان ثلاثة أرباع المغول أتراكا (Cahun, p. 279.).

(٥) c. d'Ohsson, vol. iii, p. 121.

مسلمًا متحمسًا. كما دفع كثيرًا من أهل تانجوت Tangut وعددًا كبيرًا من الجنود الذين كانوا تحت إمرته إلى اعتناق هذا الدين. وعلى الرغم من استدعائه إلى بلاط تيمور وبذل الجهد في ارتداده إلى البوذية، أبى إلا التمسك بدينه الجديد، فألقى به في غياهب السجن، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحه بعد قليل خشية ثورة أهالي تانجوت الذين كانوا شديدي التعلق به[١].

ويقرر مؤلف كتاب «منتخب التواريخ» أن آنندا بنى في خان بالغ (وفي بكين الحالية) أربعة مساجد تسع مليون شخص في صلاة الجمعة؛ على أنه ليس ثمة ما يؤيد هذه الرواية أو غيرها من الروايات التي رواها هذا الكاتب عن انتشار الإسلام في الصين، من حيث أنه يمثل آنئذا خلفًا لتيمور خان على عرش إمبراطورية المغول، ثم يمدنا بعبارة خرافية صرفة عن خلفائه الذين يشير إلى أن عددًا منهم أعلن إسلامه، مع أنه ليس لأحد من هؤلاء الخمسة وجود إلا في مخيلة الكاتب[٢].

وكان بركة خان (١٢٥٦–١٢٦٧م) أول من أسلم من أمراء المغول؛ وكان رئيسًا للقبيلة الذهبية في الروسيا بين سنتي ١٢٥٦و ١٢٦٧م[٣]. وقد قيل في سبب إسلامه إنه التقى يومًا عيرًا للتجارة آتية من بخارى. ولما خلا بتاجرين منهم سألهما عن عقائد الإسلام، فشرحاها له شرحا مقنعًا انتهى به إلى اعتناق هذا الدين والإخلاص له. وقد كاشف أصغر أخوته أول الأمر عن تغييره لدينه واعتناقه الإسلام، وحبب إليه أن يحذوه حذوه، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين[٤].

على أن الجوزجاني قد ذكر أن بركة خان اعتنق الإسلام منذ طفولته. ولما شب وبلغ

---

(١) رشيد الدين س ٦٠٠ –٦٠٢.

(٢) Blocget, pp. pp. 74-7.

(٣) ومن الأهمية أن نلاحظ أن نجم الدين مختارًا الزاهدي وضع لبركة خان في سنة ١٢٦٠م رسالة تؤيد بالبراهين رسالة النبي الدينية وتدحض ماذكره المنكرون لهذه الرسالة، وتمدنا بوصف للمناظرات التي قامت بين المسيحيين والمسلمين.
(Steinschneider, pp. 63-4).

(٤) أبو الغازي ج ٢ ص ١٨١

سن التعليم، حفظ القرآن على أحد علماء مدينة خوقند[1] Khodiand. ويذكر نفس المؤلف (الذي جمع تاريخه في حياة بركة خان) أن كل جيشه كان مسلمًا، «ما يذكر بعض الثقات أنه قد جرت العادة بأن يحمل كل فارس في جيشه سجادة للصلاة، حتى إذا ما حان وقت الصلاة اشتغلوا بصلاتهم. كما لم يكن في جيشه شخص واحد يتعاطى أي مسكر. وكانت الطبقة الاجتماعية الراقية في بلاده تضم مشاهير العلماء من المفسرين ورجال الحديث والفقهاء علماء الكلام. وكان في حوزته عدد كبير من كتب الدين؛ كما كان معظم مجالسه ومناظراته مع العلماء. وكانت المناظرات الدينية منها تشغل أكثر مجالسه، وكان هو سنيًا مغاليًا شديد التمسك بدينه[2]»

وقد دخل بركة خان في حلف مع ركن الدين الظاهر بيبرس (١٢٦٠–١٢٧٧م)، سلطان المماليك في مصر، الذي بدأ تلك العلاقات الوثيقة من جانبه؛ فقد احتفى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المائتين. ولما لاحظ هؤلاء الجند العداء المستحكم بين ملكهم وبين هولاكو فاتح بغداد وهم الذين كانوا ينضوون تحت لوائه، فروا إلى سورية، حيث يمموا منها شطر مصر، وهناك استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم في بلاط بيبرس، الذي أقنعهم بصحة الدين الإسلامي واعتناقه[3].

وكان بيبرس نفسه في حرب مع هولاكو، وقد هزمه بيبرس وأخرجه من سورية منذ أمد قريب. وقد أرسل بيبرس اثنين من المغول اللاجئين وغيرهم من الرسل يحملون كتابًا إلى بركة خان. وقد نقل هؤلاء عند عودتهم إلى مصر، أن لكل أمير وأميرة في بلاط بركة خان إمامًا ومؤذنًا خاصًا، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس[4]. وكان من أثر هذه العلاقات الودية التي قامت بين بيبرس وبركة خان، أن كثر الوافدون من رجال القبيلة

---

[1] الجوزجاني ص ٤٤٧. Raverty. Pp. 1283-4.

[2] الجوزجاني ص ٤٤٧. Raverty. Pp. 1285-6.

[3] المقريزي (٢): ج ١ ص ١٨٠– ١٨١، ١٨٧

[4] المقريزي (٢): ج ١ ص٢١٥

الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام دينًا لهم[1].

كان الإسلام أقل انتشارًا في بلاد الفرس، حيث أسس هولاكو أسرة إيلخانات المغول، ولكي يقوى على صد هجمات بركة خان وسلطان مصر، تحالف هولاكو مع القوات المسيحية في الشرق كملك أرمينية والصليبيين، وكانت زوجته المحببة إليه مسيحية، فعملت على استمالة زوجها نحو إخوانها في الدين، كما تزوج ابنه أباقا خان (١٢٦٥–١٢٨١م) من ابنة إمبراطور القسطنطينية.

ومع أن أباقا نفسه لم يتخذ المسيحية دينًا له، امتلأ بلاطه بالقسيسين من المسيحيين، وأرسل السفراء إلى بعض أمراء أوربا؛ فكان يراسل القديس لويس ملك فرنسا، وشارل ملك صقلية، وجيمس ملك أرغونة يطلب إليهم التحالف معه على المسلمين، كما أرسل لهذا الغرض أيضًا بعثًا من ستة عشر سفيرًا من المغول إلى مجمع من المغول إلى مجمع ليون سنة ١٢٧٤م، حيث دخل رئيس أولئك السفراء في المسيحية وعمد مع بعض رفاقه. وقد طمع المسيحيون، فعلقوا الآمال على اعتناق أباقا خان المسيحية؛ ولكن الأيام أظهرت أن تلك الآمال لم تكن إلا سرابًا خادعًا. وكان أخوه تكودار أحمد[2] (١٢٨٢–١٢٨٤م)، الذي اعتلى العرش من بعده، أول إيلخانات المغول الذين اعتقدوا الإسلام في فارس. وقد شب على المسيحية، لأنه (كما يحدثنا بذلك كاتب مسيحي من معاصريه[3]).

«عمد في صباه وتسمى باسم نيقولا، ولكنه دان بالإسلام عندما بلغ سن الرشد عن طريق اتصاله بالمسلمين الذين كان كلفا بهم، وأصبح مسلمًا دنيئًا. ولما ارتد عن المسيحية رغب في أن يسمى محمدًا خان، وبذل قصاراه في تحويل كافة التتار إلى دين مُحَمَّد وعقائده، ولما أظهروا صلابة في الارتداد عن دينهم، لم يجرؤ على حملهم على اعتناق الإسلام، وإنما لجأ إلى ذلك عن طريق بذل العطايا والمنح وألقاب الشرف؛ حتى إن عددًا

---

[1] نفس المصدر ص ٢٢٢

[2] أو نيكودار على ما يسميه وصاف الحضرة، وقد سمي أحمد بعد اعتناقه الإسلام.

[3] Hayton. (Ramusio, tom. Ii. P. 60, c).

كبيرًا من التتار دخل في عهده في عقيدة المسلمين»

وقد بعث تكودار أحمد بنبأ إسلامه إلى سلطان المماليك في مصر (قلاوون) في ذلك الكتاب: «إلى سلطان مصر.. أما بعد، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته، قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة، إلى الإقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام، بصدق نبوته وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريته {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَام}[1].

فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين، إلى أن أفضى إلينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نوبة الملك، فأضفى علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه، ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه، وجلي هذه المملكة علينا وأهدى عقيلتها إلينا. فاجتمع عندنا في قوريليان (Quriltay على الأصح) المبارك – وهو المجتمع الذي تقدح فيه الآراء – جميع الإخوان والأولاد والأمراء الكبراء، ومقدمو العساكر وزعماء البلاد؛ واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير، في إنفاذ الكم الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتها، وامتلأت الأرض رعبًا من عظيم صولتها وشديد بطشها، إلى تلك الجهة، بهمة تخضع لها صم الأطواد، وعزيمة تلين لها الصم الصلاد.

ففكرنا فيما تمخضت زبد عزائمهم عنه واجتمعت أهواؤهم عليه، فوجدناه مخالفًا لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام، الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام، وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء، وتجري به في الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان، تعظمًا لأمر الله وشفقة على خلق الله، فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة، وتسكين الفتن الثائرة، وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا الله إليه: من تقديم ما يرجى به من شفاء مزاج العالم من الأدواء، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء.

---

[1] سورة ٦ آية ١٢٥

وإننا لا نحب المسارعة إلى بز النضال للنضال، إلا بعد إيضاح المحجة، ولا نبادر لها إلا بعد تبيين الحق وتركيب الحجة، وقوي عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح. إذ كان الشيخ قدوة العارفين (كمال الدين عبد الرحمن)، الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين، فأرسلناه رحمة من الله لمن (لبى) دعاه، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه وأنفذنا أقضى القضاة قطب (الملة) والدين، والأتابك بهاء الدين.. اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة، ليعرفوهم طريقتنا، ويتحقق عندهم ما ينطوي عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا؛ وبيّنا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة، وأن الإسلام يجُبّ ما قبله، أنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله، فإن تطلعت نفوس إلى دليل تستحكم بسببه دواعي الاعتماد، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد، فلينظروا إلى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبره، وعم أثره.

فإنا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين وإظهاره، في إيراد كل أمر وإصداره، تقديمًا لناموس الشرع المحمدي، على مقتضى قانون العدل الأحمدي، إجلالاً وتعظيمًا، وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور، وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف، وقابلناه بالصفح، وقلنا: عفا الله عما سلف؛ وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس، وعمارة بقاع الدين والربط؛ وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها، وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج، وتجهيز وفدها، وتأمين سبلها، وتيسير قوافلها؛ وإنا أطلقنا سبيل التجار المترددين على تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم». وهو يلتمس محالفة سلطان مصر، «بحيث تعمر تلك الممالك وتيك البلاد، وتسكن الفتنة الثائرة، وتغمد السيوف الباترة، وتحل العامة أرض الهوينى، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون»[(١)] [(*)].

---

(١) وصاف الحضرة ص ٢٣١- ٢٣٤.

(*) وقد ورد هذا الكتاب أيضا في القلقشندي: صبح الأعشى ج١ ص٦٥-٦٨، وهو مؤرخ في شهر جمادى الأولى سنة ٦٨١هـ (أغسطس سنة ١٢٨٢م) ، وقد بعث به مع رسولين هما قصب الدين شيرازي وأتابك بهلون، وقد رد قلاوون على إيلخان المغول بكتاب مؤرخ أول رمضان من السنة نفسها (٣ديسمبر سنة ١٢٨٢م) وقد ورد هذا الكتاب في القلقشندي (ج٧ ص٢٣٧-٢٤٢).

وإن من يدرس تاريخ المغول ليرتاح عندما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع وما سفكوه من الدماء، إلى أسمى عواطف الإنسانية وحب الخير، التي أعلنت عن نفسها في تلك الوثيقة التاريخية التي كتبها تكودار أحمد إلى سلطان المماليك في مصر، والتي يدهش الإنسان لصدورها من مثل ذلك المغولي.

وقد أحفظ تكودار أحمد واضطهاده المسيحيين، المغول الذين كانوا شديدي الاتصال بهم برغم مخالفتهم لهم في الدين، وشكوه إلى قوبيلاي خان، متهمين إياه بأنه خالف بذلك سنن أجداده. وقد قامت في وجهه ثورة على رأسها ابن أخيه أرغون الذي دبر قتله، ثم خلفه على العرش. وفي أثناء حكم أرغون (١٢٨٤– ١٢٩١م) القصير، استرد المسيحيون مكانتهم من جديد، على حين لم يكن بد من أن يلقى المسلمون الاضطهاد، فصرفوا عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية، وحرم عليهم الظهور في بلاطه[١].

وفي ظل خلفاء تكودار أحمد على وثنيتهم، حتى دخل غازان (١٢٩٥– ١٣٠٤م) سابع الإيلخانات وأعظمهم شأنا)، في الدين الإسلامي في سنة ١٢٩٥م، وجعله دين الدولة الرسمي في فارس، وفي عهد إيلخانات المغول الثلاثة الأخيرين الذين سبقوا غازان[*]، أمل المسيحيون آمالا كبارا في تحويل الأسرة الحاكمة في فارس إلى الدين الإسلامي، تلك الأسرة التي أظهرت نحوهم عطفا شديدا، وأسندت إليهم كثيرا من مناصب الدولة المهمة، وكان يبدو خان، سلف غازان، الذي كان رأس الفتنة في فارس، والذي جلس على العرش في سنة ١٢٩٥م بضعة أشهر فقط، قد آثر الدين المسيحي، وجهد في وضع العقبات في سبيل انتشار الإسلام بين المغول، فحرم على كل شخص أن يدعو لذلك الدين أو أن ينشر عقائده بينهم[٢].

وقد شب غازان على البوذية قبل اعتناقه الإسلام، وشيد عدة معابد للبوذية في

---

(١) De Guignes, vol, iii. Pp.263-5.

(*) هؤلاء أهم أرغون (١٢٨٤– ١٢٩١)(، وجيخانو (١٢٩١– ١٢٩٥م) وبيدو (إبريل –أكتوبر سنة ١٢٩٥م)

(٢) C.d'Ohsson, tome iv, PP. 141-2

خراسان، وكان يُسرّ كثيرا بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون إلى هذا الدين والذين كانوا قد وفدوا إلى فارس في جماعات كبيرة منذ بسط المغول سلطانهم في هذه البلاد[١]. ويظهر أن غازان كان بطبعه يميل إلى تقليب نظره في المسائل الدينية، لأنه درس عقائد الأديان المختلفة المنتشرة في زمانه، واعتاد أن يقيم مناظرات مع أئمة كل من هذه الأديان[٢]. وقد أيد رشيد الدين، وزيره العالم ومؤرخ عصره، بالبرهان صحة اعتقاده الإسلام، الذي أخذ على عاتقه المحافظة على شعائره في حماس وغيرة طوال عهده؛ ولو أن معاصريه (وكثيرا ما ردد الكتاب الذين جاءوا فيما بعد هذه التهمة) أظهروا أنه إنما أذعن لإلحاح بعض الأمراء والمشايخ وتوسلاتهم[٣].

وفضلا عن ذلك، يسأل من يتصدى للدفاع عن عقيدة غازان الدينية: أي شعور خطير يمكن أن يثير اهتمام حاكم في مثل هذه القوة والنفوذ في تبديل دينه؟ بل قل اهتمام أمير قام أسلافه الوثنيون بغزو العالم؟» على أن اعتقاده – غازان – الإسلام قد جذب إليه، بلا مراء، قلوب الفرس عندما كان في نزاع مع بيدو على اعتلاء العرش، وقد عدل المغول من المسلمين الذين كانوا في جيش منافسة عن تأييد دعوى أخيهم في الدين. وكانت هذه هي الاعتبارات الحق التي تذرع بها نوروز في حث غازان على قبول دعوته إلى الإسلام. وكان نوروز أميرا مسلما، مالأ غازان، وناداه بلقب الأمير، وتنبأ بأنه سيظهر حول ذلك الوقت لحماية عقيدة الإسلام وإعادتها إلى سابق مجدها؛ كما أعلن أنه إذا اعتنق الإسلام، أصبح حاكم بلاد الفرس، وأن المسلمين إذا تخلصوا من نير المغول الوثنيين المؤلم، انتحلوا دعوته واعترفوا بأنه الدين الحق الذي يخلصهم من هلاك محقق، وباركوا آلاته الحربية ودعوا له بالنصر[٤].

وبعد قليل تردد جهر غازان بإسلامه، واقتفى أثره جنده وقواده، ووزع المنح على

---

(١) Id. Ib. p.148.

(٢) Id. Ib.P. 365.

(٣) Cahun, P.434. Id. Ib.PP.148. 354.

(٤) C.d'Ohsson, tome iv, pp. 128, 132.

أفرادها وأهل العلم وزار المساجد ومقابر الصالحين، وظهر في كل أطواره بمظهر الحاكم المسلم المثالي، وقد شب أخوه أولجايتو Uljaytu الذي خلفه في سنة ١٣٠٤ م باسم مُحَمَّد خدابنده[*] Khudabandah على المسيحية دين أمه، وعمد باسم نيقولا، على أنه لم يلبث أن اعتقد الإسلام بعد موت أمه، وهو لا يزال شابا في مقتبل العمر، وذلك بتأثير زوجته[١]. ويذكر ابن بطوطة أن سيرة ذلك الأمير كان لها أثر كبير في نفوس المغول، ومن ذلك العهد غدا الإسلام الدين السائد في دولة إيلخانات فارس.

وإن ما لدينا من المعلومات عن تقدم الإسلام وانتشاره في إمبراطورية المغول الوسطى، التي كانت من نصيب جغطاي، لا يزال ضئيلا، وكان كثير من أعقاب هذه الأسرة يستعينون في دولتهم بوزير من المسلمين على الرغم من أنه لم يبد أي ميل إلى الإسلام. وقد ضيق جغطاي على رعاياه من المسلمين بما سنه من القوانين الشديدة الحرج، التي ضيقت على شعائرهم الدينية، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام وفرائض الوضوء.

(*) ذكر ابن بطوطة (ج١ ص١٤٣) أن اسمه مختلف فيه، وقد قيل خذا (بضم الخاء) ومعناها بالفارسية اسم الله، وبنده، ومعناها غلام أو عبد، وقيل خربنده (بفتح الخاء) ومعناها بالفارسية الحمار، وبنده ومعناها غلام أو عبد، فيكون عبد الله، أو غلام الحمار، وقد قيل إن سبب تسميته بهذا الاسم الأخير أن التتار يسمون الطفل باسم أول داخل إلى البيت عند ولادته، فلما ولد كان أول داخل الرمال (الرمال صاحب الزمالة، والزاملة ما يحمل عليه من الحيوان، ولعله يريد هنا الحمار) فسمي خربنده. وذكر براون أن غازان لما تولى فر أولجايتو وظل مشردا يرعى الحمير في إقليم كرمان وهرمز؛ ولذلك أطلق عليه اسم خربنده أو راعي الحمير. وقيل أيضا أن أبوي الطفل كانا يطلقان عليه اسما قبيحا حتى لا تؤثر فيه عيون الحساد، ولذلك سمي خربنده كما يسمى العرب أبناءهم بفهر وكلب وصخر ومعاوية ونحو ذلك تفاؤلا بأن يكون الولد في كبره صخرا أو كلبا على عدوه، وقال ابن الوردي (تاريخ بن الوردي ص٢٦٤) إن خربنده اسمه خدا بنده، وإن ملكه شمل بلاد العراق وخراسان والعراق العجمي وأذربيجان بكر.

(١) Hammer- Purgstall: Geschichte der Ilchanen vol, ii.182. لا يبعد أن يكون سبايا المسلمين قد قمن بدور مهم في تحويل المغول إلى الإسلام، ويظهر أن المرأة شغلت مركزا من مراكز الشرف والكرامة بين المغول، ويمكن أن نأتي بأمثلة كثيرة تؤيد أنه كان لها أثر ظاهر في الشئون السياسية، وقد تصدينا من قبل الذكر عدة حالات تبين مدى تأثير النساء في أزواجهن في المسائل الدينية، ويحدثنا وليم روبرك أنه شاهد بنفسه تأثير إحدى النساء المسلمات، وكيف وقف ذلك التأثير في سبيل نشر تعاليمه الدينية»، وفي عيد النصرة أتى أحد المسلمين عندما أخذنا في شرح تعاليم الدين في أثناء حديثه معنا. فلما سمع عن نعم الله على الناس وعن التجسد وبعث الموتى ويوم الحساب ومحو الخطايا عن طريق التعميد، رغب في أن يعمد. ولكن، بينما كنا نعد العدة لتعميده، امتطى صهر جواده على حين غفلة، قائلا إنه لا بد من أن يذهب إلى داره لاستشارة زوجته، وفي اليوم التالي قال لنا في أثناء حديثه معنا إنه لم يستطع أن يجرؤ على أن يعمد، لأنه لا يستطيع عندئذ أن يشرب لبن الفرس .(Rubruck, PP.991-1)

ويذكر الجوزجاني أن جغطاي هذا كان ألد أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة، وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغب في أن ينطق أحد بكلمة مسلم في حضرته اللهم إلا إذا أريد بها التحقير والحط من شأنها[١]. وقد ربت أرغنة Orghana زوجة قرا هولاكو Qará- Húlàgu حفيد جغطاي وخليفته، ابنها على الإسلام، وتقدم باسم مبارك شاه في سنة ١٢٦٤م مطالبا بعرش خافاتية جغطاي، الذي كان مثار النزاع بين أمراء المغول، ولكن سرعان ما خلعه ابن عمه براق خان Buraq KhaN ويظهر أنه لم يكن لإسلامه أي أثر بين المغول؛ فإننا لو رجعنا في الواقع إلى أسماء أبنائه، لا نجد أحدا منهم قد دخل في دين أبيه[٢]، وقد قيل إن براق خان نفسه «قد أدركته البركة بتلقيه العقيدة» قبل موته في سنة ١٢٧٠م بأيام قليلة، وإنه تسمى باسم السلطان غياث الدين[٣].

إلا أنه دفن حسب طقوس المغول القديمة ولم يدفن وفق شعائر الدين الإسلامي وأن من دخل في الإسلام في عهده ارتدوا إلى وثنيتهم الأولى، ولم يتم انتشار الإسلام بين المغول في مملكة جغطاي إلا في القرن التالي لإسلام مبارك خان، وذلك على أثر إسلام طرما شيرين Tarmàshrin حول سنة ١٣٢٦م. وقد ظل المغول الذين اقتفوا أثر زعيمهم متمسكين في هذه المرة بدينهم الجديد، وعلى الرغم من ذلك لم يتأصل الميل إلى الإسلام بعد في نفوس المغول، فإن بوزن Buzan الذي كان خان المغول في عشر السنين التالية (ولو أن صحة هذا التاريخ غير محققة)، ولم يلبث أن طرما شيرين من العرش واضطهد المسلمين[٤].

على أننا لم نسمع عن ظهور أول مسلم إلا بعد سنين قليلة، وكان ضعف أسرة جغطاي قد أتاح لهذه المملكة أن تستقل بحكم هذه البلاد، ويقول بعض المؤرخين إن إسلام تقلق تيمورخان Tuqluq Timúr khan (١٣٤٧– ١٣٦٣م) ملك كاشغر، كان

---

(١) ابن بطوطة ج٢ ث٥٧.

(٢) الجوزجاني ص٣٨١، ص٣٩٧، Raverty, pp.1110, 1145- 6.

(٣) رشيد الدين ص١٧٣–٤، ١٨٨.

(٤) رحلة ابن بطوطة ص١٧٣–٤–١٨٨

على يد رجل من أهل الورع والتقوى في مدينة بخارى، يقال له الشيخ جمال الدين، وكان معه جماعة من التجار، وكانوا قد اعتدوا على الأراضي التي خصصها ذلك الأمير للصيد؛ فأمر بأن توثق أيديهم وأرجلهم، وأن يمثلوا بين يديه، ثم سألهم في غضب: كيف جرؤوا على دخول هذه الأرض؟.. فأجاب الشيخ بأنهم غرباء، ولا يعدون أنهم يجوسون أرضا محرمة. ولما علم الأمير أنهم من الفرس قال: إن الكلب أغلى ثمنا من أي فارسي، فأجاب الشيخ: «نعم! قد نكون أغلى ثمنا من الكلب لو أننا لم ندن بالدين الحق، ولما راع الأمير ذلك الجواب أمر بأن يقدم إليه ذلك الفارسي الجسور عند عودته من الصيد، ولما خلا به سأله ماذا يعني بهذه الكلمات، وما ذلك الدين؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الإسلام في غيرة وحماس انفطر لهما قلب الأمير حتى كاد يذوب كما يذوب الشمع، وصور له الكفر بصورة مروعة اقتنع معها الأمير بضلال معتقداته وفسادها، وقال: «ولكني إذا اعتنقت الإسلام الآن، فلن يكون من السهل أن أهدي رعاياي إلى الصراط المستقيم، فلتمهلني قليلا؛ فإذا ما آلت إلى مملكة أجدادي، فعد إلي»

وذلك إن إمبراطورية جغطاي انقسمت في ذلك الوقت إلى إمارات صغيرة، وظلت على ذلك سنين طويلة حتى نجح تقلق تيمور في توحيد الإمبراطورية كلها تحت سلطانه، وجمع كلمتها كما كانت من قبل، وفي هذه الأثناء كان الشيخ جمال الدين قد عاد إلى بلده حيث مرض مرضا شديدا، فلما أشرف على الوفاة قال لابنه رشيد الدين: «سيصبح تقلق تيمور يوما ما ملكا عظيما، فلا تنس أن تذهب إليه وتقرئه مني السلام، ولا تخش أن تذكره بوعده الذي قطعه لي»

ولم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة حتى ذهب إلى معسكر الخان، وكان قد استرد عرش إمبراطورية آبائه، تنفيذا لوصية أبيه؛ ولكنه لم يستطع أن يظفر بالمثول بين يدي الخان برغم ما بذله من جهود، وأخيرا لجأ إلى هذه الحيلة الطريقة؛ ففي ذات يوم أخذ يؤذن في الصباح المبكر على مقرة من فسطاط الخان، فأقلق ذلك الصوت نوم الخان وأثار غضبه، فأمر بإحضاره ومثوله بين يديه، وهناك أدى رشيد الدين رسالة أبيه، ولم ينس تقلق تيمور وعده وقال: «حقا! مازلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائي، ولكن

الشخص الذي قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل، والآن فأنت على الرحب السعة، ثم اقرأ بالشهادتين، وأصبح مسلما منذ ذلك الحين؛ «وأشرقت شمس الإسلام ومحت بنورها ظلام الكفر. ولكي ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق تيمور ورشيد الدين على أن يستقبل الملك الأمراء واحدا بعد واحد، ويعرض عليهم الإسلام، فمن قبله جوزي الجزاء الحسن، ومن أباه ذبح كما يذبح الوثنيون وعبادة الأصنام»

وكان أول من عرض عليه منهم، الأمير تولك **Tùlik**؛ فقال له الخان: «ألا تدخل في الإسلام؟» عند ذلك سالت عبرات الأمير وقال: "لقد دخلت في الإسلام منذ ثلاث سنين على يد أحد رجال هذا الدين في كاشغر، وأصبحت مسلما منذ ذلك الحين؛ ولكني لم أصرح بذلك خوفا منك"؛ فنهض تقلق خان وعانقه؛ ثم جلس ثلاثتهم، وهكذا عرض الإسلام على سائر الأمراء، فقبلوه جميعا، إلا واحدا منهم اسمه **Jaraàs** فقد أبى أن يدخل في هذا الدين، واقترح عقد امتحان في القوة الجسمانية بين الشيخ وخادمه وكان ضخم الجثة؛ وقد بلغ من شدة قوته أنه كان يستطيع أن يرفع بيديه جملا ثنيا (ابن حولين)؛ فقبل الشيخ المبارزة وقال لذلك الأمير: «إذا لم أصرعه فلن أطلب إليك أن تدخل في الإسلام؛ وإذا قضت إرادة الله أن ينال المغول الشرف ببركة هذا الدين، فإنه سوف يهب لي، بلا ريب، قوة أستطيع بها أن أظهر على هذا الرجل"

وقد حاول تقلق وغيره من الذين اعتنقوا الإسلام جهدهم في أن يصرفوا ذلك الشيخ الورع عن تلك المبارزة، ولكنه أصر على ذلك، «واحتشد الناس وأتي بذلك الكافر ووقف كل منهما أمام الآخر، فتقدم الخادم في غير اكتراث اعتزازا بقوته وبدا الشيخ صغيرا ضعيفا جدا بجانب ذلك الرجل، ولم يكد يبدأ الصراع بينهما حتى وكز الشيخ الكافر وكزة قوية في صدره فسقط مغشيا عليه، وبعد قليل عاود الخادم المصارعة، ولكنه لم يكد ينهض حتى سقط على أقدم الشيخ وصاح بكلمة الإيمان. فأكبر الناس ذلك الانتصار وعلت أصواب الاستحسان من كل مكان، وفي ذلك اليوم قص ١٦٠.٠٠٠ رجل شعورهم ودخلوا في الإسلام، وأخذت الدهشة من الخان كل مأخذ، وبدد نور الإسلام غياهب الكفر»

وأصبح الدين الإسلامي منذ ذلك الوقت دين سكان الحضر في الولايات الخاضعة لسلطان خلفاء جغطاي [١]. ولكن يظهر أن كثيرين من بدو المغول بقوا بعيدين عن حظيرة الإسلام حتى مستهل القرن الخامس عشر الميلادي، كما يتضح ذلك من الوسائل العنيفة التي كان يسلكها مُحَمَّد خان، أمير مغالستان[٢] حول سنة ١٤١٦م، لتحويل هؤلاء البدو إلى ذلك الدين، «وكان مُحَمَّد خان أميرا ثريا حسن الإسلام، نهج منهج العدل وسلك سبيل المساواة بين الناس، ولم يفتر عن بذل هذه الجهود حتى أصبح معظم القبائل المغولية في عهده المبارك تدين بالإسلام، وقد عرف الناس هذه الوسائل الشديدة الحرج التي تذرع بها لحمل المغول على الدخول في الإسلام، مثال ذلك أنه كان إذا لم يلبس أحد المغول عمامة أنفذ في رأسه مسمارا من المسامير التي تستعمل في تركيب حدوة الحصان، وذاع استعمال هذا النوع من الوسائل الشديدة الحرج، جزاه الله خيرا!» [٣].

بل إن أمثال هذه الوسائل الصارمة لم يكن لها تأثير في حمل الناس كافة على قبول الإسلام؛ فقد ظهر في زمن متأخر يرجع إلى نهاية القرن التالي (السادس عشر الميلادي[٤]) أحد الدراويش واسمه إسحاق ولى، ووجد مجالا لتحويل كثيرين إلى الدين الإسلامي في كاشغر وباركند والخطأ، حيث قضى اثنتي عشرة سنة ينشر هذا الدين بينهم[٥]، كما عني أيضا بنشر الإسلام بين أمم الكرغير والقازاق، حتى أسلم منهم على يده مائة وثمانون وهدم ثمانية عشر هيكلا من هياكل الوثنيين[٦].

وقد حاولنا، فيما ذكرناه من قبل أن نبين بعض الخطى التي خطاها المسلمون ليجذبوا إلى دينهم القبائل المتوحشة التي قضت على مراكز ثقافتهم، وبذلك بدأ الإسلام

---

(١) أبو الغازي ج٢ ص١٦٠–١٦٨، مُحَمَّد حيدر ص١٣–١٥.

(٢) لما انحلت قوة خانات جغطاي غدا جزء من القسم الشرقي من مملكتهم مستقلا استقلالا عمليا تحت اسم مغالستان، وهي مملكة زراعية تلائم عادات رعاة البدو، وتسمى الآن تركستان الصينية.

(٣) مُحَمَّد حيدر ص٥٧– ٥٨.

(٤) كان ذلك في عهد عبد الكريم الذي كان خان كاشغر من سنة ٩٨٣ إلى سنة ١٠٠٣هـ (١٥٧٥–١٥٩٤).

(٥) Martin Hartman: Der Islamische Orient, vol, i. p. 203 (Berlin,1899).

(٦) Id, P.202

يتخلص تدريجيا من أطلال مجده السالف، ويتخذ مكانه من جديد باعتباره دينا ذا سيادة، بعد أن مني بالتدهور والانحطاط أكثر من قرن. وفي أثناء الكفاح الذي احتدم بين أتباع الديانات المتنافسة لجذب المغول إلى دياناتهم، كان لاعتبارات المنافع السياسية، بلا ريب، دخل كبير في توجيه هذا الكفاح لمصلحة جماعة المسلمين، وقد أثارت مؤامرات العالم المسيحي في الغرب شك المسيحيين الذي نظروا إليهم على أنهم جواسيس يعملون لمصلحة قوة أجنبية.

بيد أن بعض المغول الذين كانوا يدينون بعقائد المذهب النسطوري، استطاعوا بادئ الأمر أن يتقدموا بدعوى أحسن من الدعوى التي تذرع بها غيرهم، وهي أنهم قوم وطنيون، واستطاعوا بذلك أن يحملوا على المسلمين لأنهم أتباع دين أجنبي عنهم، فقد اتهم أرغون أحمد تكودار بخيانة شريعة آبائه بأن سلك سبيل العرب الذين لم يعرفهم أحد من أسلافه[1].

وإن الثورة التي أدت إلى طرد طرماشيرين ونفيه استمدت قوتها من الشكوى بأن هذا الملك لم يحفل بالسياق أو القوانين القديمة الخاصة بالنظم المغولية[2]، ومع أن مصدر الكفاح قد ظل مثارا للشك زمنا طويلا، رسخت أقدام الإسلام في البلاد التي انتزعت منه، وإن الوسائل التي أحرزتها بهذا الدين ذلك النجاح، لمن المسائل التي يحوطها الغموض والإبهام، كما إن المعلومات القليلة التي ذكرناها، تضرب صفحا عن ذكر كثير من تفاصيل هذه القصة. بيد أننا قد سجلنا ما يكفي للدلالة على بعض الأعمال التي أدت إلى تحولات فردية إلى هذا الدين.

وقد أُشرب آنئذ روح الإسلام[3]، وتمتعت البقية الباقية من المؤمنين، وخاصة الأسرات التركية الإسلامية القديمة، بنفوذ لا يكاد يحس، بين المغول الذين استقروا بينهم. على أن هنالك من بين العوامل الفعالة التي ساعدت على نشر الدعوة والتي كان لها أهمية

---

(١) Assemani, tome, iii, part, ii, p. cxvi.

(٢) ابن بطوطة ج٣ص ٤٠.

(٣) رشيد الدين ص٦٠٠ س١.

خاصة في هذا السبيل، تأثير البير pir وتلاميذه الروحيين، وفي وسط ذلك الخور العميق الذي طغى على المسلمين بعد تدفق سبل الفتح المغولي، وجد هؤلاء ملجأهم الأول في التصوف، وقد أمد البير أو المرشد الروحي والطوائف الدينية، كطائفة النقشبندية التي ظهرت بمظهر النفوذ والقوة في القرن الرابع عشر الميلادي، الجماعة الإسلامية بحياة جديدة وبثوا فيها حماسة شديدة.

«وعلى أيدي البير ودعاته غدا المسلم في آسيا أول الأمر عاملا سلبيا لا يصدر في أعماله عن شعور ووجدان، ثم أصبح آخر الأمر مشايعة لجماعة الدين القومي التي تناوئ حكم المغول الذي كان وقتا ما اجنبيا متبربرا سوقيا"[1].

ولنعد الآن إلى الكلام على انتشار الإسلام بين أهالي القبيلة الذهبية، كانت هذه الطائفة من المغول تنزل في ذلك السهل الرئيس الخصب الذي يرويه نهر الفلجا، حيث اتخذت على أحد ضفافه حاصرتها سيرية Srai، ومنها أرسل أمراء الروس الجزية إلى الخان؛ وكان لإسلام بركة خان الذي تكلمنا من قبل، وما كان بينه وبين المماليك في مصر من الصلات الوثنية أثر كبير في انتشار الإسلام بين أهالي هذه القبيلة.

ويظهر أنه قد حذا حذوه تدريجيا كثير من أفراد الطبقة الأرستقراطية وزعماء القبيلة الذهبية الذين كانوا من أصل مغولي، ولكن يظهر أيضًا أن كثيرًا من بطون هذه القبيلة الذهبية قاوموا ذلك الدين وحالوا دون انتشاره بينهم، حيث إنهم فكروا في خلع بركة خان حين أعلن إسلامه، وعرضوا تاج المغول الذي اعتقدوا أنه أصبح غير جدير به على منافسة هولاكو، وبلغ من شدة هذه المقاومة أن انقسم المغول على أنفسهم، وظهرت بينهم قبيلة نوجاي Nogais كقبيلة منفصلة، واتخذوا هذا الاسم من Nogay الذي كان قائد قواد الجيوش المغولية في دولة بركة خان، ولما أصبح غيره أمراء القبيلة الذهبية يدينون بالإسلام، ظل نوجاي متمسكا بالشامانية، وغدا نقطة الاتصال بين كل من هؤلاء الذين أبوا أن يتحولوا عن ديانة المغول القديمة، على أن ابنة هذا القائد التي تزوجت من أحد

---

(١) Cahun., P.410.

الشامانيين لم تلبث أن دخلت في الإسلام بعد زواجها بقليل، وظلت على دينها الجديد، ولم يصرفها عنه سوء معاملة زوجها واحتقاره إياها[١].

وقد قيل أوزبك خان Uzbek Khàn، الذي كان زعيما للقبيلة الذهبية من سنة ١٣١٣ إلى سنة ١٣٤٠م، والذي اشتهر بتحمسه لنشر تعاليم الدين الإسلامي، وحرصه على تحويل كثير من الأهلين إليه "اقتنع بطاعتنا، وماذا يهمك من ديننا؟ ولماذا تترك دين جنكيز خان لتعتنق دين العرب؟".. ولكن أوزبك نجح على الرغم مما لقيته جهوده من مقاومة شديدة، في جذب كثيرين وتحويلهم إلى هذا الدين الذي كان من أشد أتباعه حماسة وصلابة، وإليه يرجع الفضل في توطيد دعائمه وتثبيت أركانه في البلاد التي كانت تحت سلطانه[٢].

ومما يدل أيضا على نفوذ أوزبك ما نجده في القبائل الأوزبكية في أواسط آسيا، التي اشتقت اسمها من اسمه والتي لا يبعد أن تكون قد تحولت إلى الإسلام في عهده، ويقال إنه وضع خطة لنشر الإسلام في كافة أرجاء بلاد الروسيا[٣]. ولكن هذه الخطة لم تصادف شيئًا من النجاح، وفي الواقع يظهر أن نفوذ المغول، مع أنهم كانوا أصحاب السيادة المطلقة في الروسيا مدة قرنين، كان قليلا جدا في أهالي هذه البلاد، وأن هذه النفوذ كان أقل ما يكون في المسائل الدينية، أضف إلى ذلك أنه مما هو جدير بالملاحظة، على الرغم مما أظهره أوزبك من التحمس في نشر الإسلام وتفانيه في الإخلاص له، أنه كان كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين، فقد منحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية من غير أن يتعرض لهم أحد بسوء، وذهب في تسامحه إلى أبعد من هذا، فسمح لهم بموالاة التبشير لدينهم ونشره في بلاده، ومن أهم الوثائق التي تسترعي الانتباه عن التسامح الإسلامي، ذلك العهد الذي منحه أوزبك خان المطران في سنة ١٣١٣م، وقد جاء فيه:

«بمشيئة الله العلي القدير وعظمته ورحمته! من أوزبك إلى أمرائنا كبيرهم وصغيرهم

---

(١) Howorthm vol, ii, p.105.

(٢) أبو الغازي ج٢ ص١٨٤

(٣) De Guignes vol, ooo. P.351.

وغيرهم. إن كنيسة بطرس مقدسة فلا يحل لأحد أن يتعرض لها أو لأحد من خدامها أو قسيسيها بسوء ولا أن يستولي على شيء من ممتلكاتها أو متاعها أو رجالها، ولا أن يتدخل في أمورها، لأنها مقدسة كلها، ومن خالف أمرنا هذا بالتعدي عليها، فهو أمر أثيم أمام الله وجزاؤه منا القتل، ولندع المطران ينعم بالأمان والبهجة؛ ولندعه (أو وكيله) يقرر وينظم كل المسائل الكنسية بقلب سليم وفؤاد عادل قويم، وإننا نعلن في حزم أننا نحن وأولادنا وأمراء دولتنا وولاء أقاليمنا لن نتدخل بأي حال في شئون الكنيسة ولا في شئون المطران، ولا في شئون المدن والمراكز والقرى والأراضي المخصصة للصيد في البر والبحر، ولا في خلايا النحل؛ ولا في الأراضي والمراعي والصحاري، ولا في المدن والأماكن في أملاكها الخاصة، ولا في الكروم والطواحين، ولا في مراعي الشتاء، ولا في أي شيء من ممتلكات الكنيسة وأمتعتها.

ولندع بال المطران في راحة دائمة خاليا من كل تعب أو نصب، ولندع قلبه سليما قويا، ولندعه يصلي لله من أجلنا ومن أجل أولادنا وأمتنا، حتى إذا وضع يده على شيء مقدس، ثبتت عليه التهمة، وباء بغضب من الله، وكان جزاؤه القتل، حتى يلقى مصيره الرعب والفزع في قلوب الآخرين، وإذا فرض الخراج أو غيره من الضرائب: كالرسوم الجمركية، والمكوس، وضرائب الطرق والأراضي غير المزروعة، أو إذا أردنا حشد الجنود من بين رعايانا، فلا يجمع شيء بالقوة والإكراه من الكنائس التابعة للمطران بطرس أي لأي أحد من رجال الدين التابعين له، وكل ما يؤخذ من رجال الدين بالقوة والإكراه، يرد إليهم أضعافا ثلاثة، ولتكن شرائعهم وكنائسهم وأديارهم ومعابدهم محل الاحترام والتعظيم، وكل من يتهم أو يحط من شأن هذا الدين، فلن يقبل منه أي عذر ولا أن يطلب العفو، بل يكون جزاؤه القتل، وسوف يتمتع أخوة القسيسين والشمامسة الذين يجلسون إلى مائدة واحدة، وفي دار واحدة بنفس هذه المزايا والحقوق"[1].

ويمكن أن نستدل على أن هذا المرسوم لم يكن كلمات جوفاء أو مجرد «حبر على

(1) Karamzin, vol, iv. Pp.391-4.

ورق» وان التسامح الذي وعد به هؤلاء المسيحيون قد أصبح حقيقة واقعة من هذه الرسالة التي بعث بها البابا يوحنا الثاني والعشرون Pope John xxii سنة ١٣١٨ إلى الخان، يشكر فيها للأمير المسلم ما أظهره من عطف على رعاياه المسيحيين، ويثني على هذه المعاملة الطيبة التي كان أوزبك يعاملهم بها[١]. ويظهر أن خلفاء أوزبك خان لم تدفعهم نفس الرغبة التي أظهرها هو في نشر الإسلام، ومن ثم لم يكن من المتوقع أن ينجحوا فيما أخفق هو فيه، وكان الروس إذا أدوا الضرائب المفروضة عليهم، تركت لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية كيف شاءوا، وقد بلغ من تغلغل المسيحية في حياة الشعب أنه لم يعد هناك ما يعكر صفو هذه الحياة، وبذلت الجهود لتحويلهم عن دين آبائهم. ويرجع السبب في ذلك إلى أن المسيحية كانت الديانة القومية للشعب الروسي قرابة ثلاثة قرون، قبل أن يوطد المغول سلطانهم في الأراضي الروسية.

وقد حاول شعب آخر جذب الروس إلى الإسلام قبل ذلك بسنين كثيرة، ولكنه أخفق كذلك؛ وهؤلاء هم البلغار من المسلمين الذين وجدوا حول القرن العاشر الميلادي على ضفاف نهر الفلجا، والذين قد يرجع الفضل في إسلامهم إلى تجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون في الفراء وسائر السلع التي كانوا يحصلون عليها من البلاد الشمالية، على أنه يظهر أن دخول البلغار في الإسلام لا بد أن يكون قد تم قبل سنة ٩٢١م، حين أرسل إليهم الخليفة المقتدر (٩٠٨– ٩٣٢م) (٢٩٥–٣٢٠هـ) رسولا من قبله يقوم بتثبيتهم على الدين وتعليمهم مبادئ الإسلام وشعائره [٢].

وقد حاول هؤلاء البلغار تحويل فلاديمير Vladimir ملك روسيا في ذلك الحين (الذي تحدثنا عنه الرواية الروسية) أنه رأى أنه لم يكن بد من أن يختار دينا آخر غير الدين الوثني الذي كان يدين به، ولم يقف في سبيل تحوله ورعاياه إلى هذا الدين إلا الختان وتحريم الخمر المستعملين عند المسلمين؛ وصرح أن الروس لا يعدلون عنهما، لأنهما كانا من

---

(١) Hammer- Purgstall: Geschichte der Goleenen Horde in Kiptschak, P.290

(٢) عن الباشفرد الذين ورد ذكرهم في ابن فضل وياقوت وشرح C.N. Franchino (Memoires de l'Académie Imperiale de sciences de St. Pétersbourg, tome vii, p.626, 1822)

مباهج الحياة عندهم، وكذلك ابتلي بهذا الإخفاق اليهود الذين جاءوا من بلاد الخزر على بحر قزوين، واستمالوا ملك هؤلاء الروس إلى الديانة الموسوسة[1].

وبعد أن أصغى فلاديمير إلى حججهم، سألهم أين بلدهم؟ فأجابوا: «بيت المقدس، ولكن الله شئت شملنا في كافة أنحاء العالم غضبا منه عليها، فصاح «إذا فقد بؤتم بلغة من الله؛ ومع الله فأنتم ترتدون أن تعلموا غيركم، اذهبوا فنحن لا نريد مثلكم ألا يكون لنا وطن» وكان أحسن ما أثر في نفس فلاديمير تلك الفكرة التي رسمها قسيس إغريقي، حين عرض صورة شاملة لتعاليم المسيحية، بعد أن نقد الديانات الأخرى نقدا موجزا، بادئا بخلق العالم وقصة فناء الإنسان، وانتهى بالمجامع السبع المسكونية التي اعترفت بها الكنيسة الإغريقية، ثم رسم الملك صورة ليوم الدين، ودخول الصالحين الجنة، وقذف الكفار في الجحيم، ووعده بميزات السماء إذا عمد. ولكن فلاديمير لم يكن يميل إلى الاندفاع في اختيار دين محل دينه الوثني، ومن ثم جمع زعماء الروس في دولته، ولما أنهى إليهم من سمعه عن الديانات المختلفة، سألهم أن يمدوه بنصائحهم، فأجابوا: «أيها الأمير! إن كل امرئ يمتدح ديانته؛ فإن أردت أن تختار أحسنها، فابعث برجال عقلاء إلى البلاد المختلفة ليكشفوا لك أية أمة من الأمم تعظم الله بالطريقة المثلى التي تليق بمقامه الأسمى»، لذلك اختار الأمير لهذا الغرض عشرة رجال اشتهروا بالحكمة وسداد الرأي، ووجد هؤلاء السفراء بين البلغار أماكن حقيرة المظهر، وصلوات تبعث على الكآبة، ووجوها واجمة، ووجدوا بين الألمان الكاثوليك حفلات دينية حفلات دينية خالية من الأبهة والجلال، وأخيرا بلغوا القسطنطينية؛ فقال الإمبراطور: «دعهم يشاهدوا جلال إلهنا»، ثم أخذوا إلى كنيسة أيا صوفيا، حيث كان البطريق، وهو مرتد ملابسه الرسمية، يحتفل بالقداس.

وإن فخامة البناء، وملابس القسيسين الكهنوتية الجميلة، وزخارف المذابح، ورائحة البخور الزكية، وسكون الناس المنبعث عن الاحترام والخضوع، والاحتفال الديني السحري

---

(1) أبو عبيد البكري ص٤٧٠– ٤٧١.

الذي يتجلى في هيبة وخشوع: كل ذلك ملأ قلوب الروس دهشًا وعجبًا. وقد بدا لهم أن هذه الكنيسة لا بد أن تكون مقام العلي الأسمى، وأنه سبحانه أظهر للبشر مجده في ذلك المكان. ولما عاد الرسل إلى كييف، وصفوا سفارتهم للأمير، وتكلموا في احتقار عن ديانة النبي، ولم يكن لديهم ما يقولون إلا القليل عن الديانة الرومانية الكاثوليكية؛ ولكنهم امتدحوا الكنيسة الإغريقية في حماسة وغيرة وقالوا: «إن كل رجل ذاق شربة حلوة، سوف يعاف من الآن، أي شراب مر المذاق. ومن أجل هذا، لا نرغب – بعد أن وقفنا على عقيدة الكنيسة الإغريقية – في أية ديانة أخرى».

وقد استشار فلاديمير زعماء الروس مرة أخرى، فقالوا له: لو لم تكن الديانة الإغريقية أحسن الديانات، لما اعتقدتها أبدًا جدتك أولجا، أحكم البشر. ومن ثم لم يعد فلاديمير مترددًا، وفي سنة ١٨٨٨م جهر بالمسيحية، وفي اليوم التالي لتعميده نبذ الأوثان التي عبدها أجداده، وأصدر مرسومًا يقضي بأن يذعن الروس كافة، سادة وعبيدًا، أغنياء وفقراء. للتعميد وفق طقوس الديانة المسيحية[1].

وهكذا أصبحت المسيحية ديانة الروس، فإنه بعد الفتح المغولي نجد الصفات القومية التي تميز بها الروس والتتار، الذين احتفظوا إلى الآن بعنصرين منفصلين أحدهما عن الآخر، وما أضمروه من كراهة مريرة للسلطان التتاري، وإخلاص الروس لدينهم، ونقص الغيرة الدينية التتار – نجد ذلك كله قد جعل الجنس المحكوم بعيدًا عن اعتقاد ديانة هؤلاء الذين فتحوا بلاده. وقد زعم بعض أن تحريم الشريعة الإسلامية الخمور كان عقبة في سبيل اعتقاد أهالي الروسيا هذا الدين.

ويظهر أنه لم تكن هنالك حالات عن تحول بعض الروس إلى الإسلام، إلا بعد أن صدر في سنة ١٩٠٥ مرسوم ينص على التسامح الديني في كافة أرجاء الإمبراطورية الروسية، وما تلا ذلك من دعاية نشيطة قام بها المسلمون. وإن ما حدث من هذه الحالات يعزى إلى قوة التأثير الناتجة من المساعدة المادية التي قدمها التتار إلى هؤلاء

---

[1] Karamsin, tome i. pp. 259-71.

الداخلين في الإسلام، كما يعزى إلى القوة المعنوية التي تميز بها المسلمون أنفسهم[١].

ولم يكن تتار بلاد الروسيا مجتمعين غير عاملين على تقدم انتشار الإسلام في القرون السابقة؛ فإن السحنة الهلينية الواضحة التي تشاهد بين هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم تتار القرم، أدت إلى الظن بأن هؤلاء المسلمين قد أدمجوا في مجتمعهم الأهالي من الإغريق والإيطاليين الذين وجدوهم قد استوطنوا شبه جزيرة القرم. كما نجد بينهم أسلافهم الذين دخلوا في الإسلام من الأهالي الوطنيين في هذه البلاد، ومن سكان مستعمرة جنوه[٢].

ويحدثنا أحد الرحالين في القرن السابع عشر الميلادي أن تتار القرن كانوا يبذلون جهدهم لحث مواليهم على الدخول في الإسلام، وأنهم جذبوا كثيرين منهم إلى هذا الدين، بما كانوا يعدونهم إياه من منحهم الحرية إذا استجابوا لرغباتهم[٣]. وكذلك نشطت الدعوة إلى الإسلام بين تتار القرم بعد أن صدر مرسوم حرية التدين في سنة ١٩٠٥[٤].

ولا بأس من أن نشير هنا إشارة موجزة إلى التتار في لتوانيا، حيث استقرت جماعات صغيرة منهم منذ أوائل القرن الخامس عشر. وقد احتفظ هؤلاء المهاجرون المسلمون، الذين أقاموا بين الأهلين من المسيحيين، بدينهم القديم، ولكن يظهر أنهم (وقد يكون ذلك لأسباب سياسية) لم يحاولوا أن يعلموهم مبادئ هذا الدين؛ بيد أنهم اعتادوا أن يتزوجوا من اللتوانيات والبولنديات، اللاتي نشأ أبناؤهن نشأة إسلامية، ولم يسمح لأية مسلمة أن تتزوج من مسيحي. وشجع كبار دوقات لتوانيا زواج النساء المسيحيات من رجال جنودهم التتارية، الذين قدموا إليهم هبات من الأرض، ومنحوهم مزايا أخرى[٥].

ومن أغرب الحوادث في تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ما كان من تحول القرغيز في بلاد آسيا الوسطى على أيدي علماء التتار (الماليات) الذين نشروا الإسلام بينهم في

---

(١) Bovronikoff, p. 13.

(٢) Reclus, tome v. p. 831. R. du M. M., tome iii. Pp. 76, 78.

(٣) Relation des Tartares, par Jean de Luca, p. 17. (Thevenot, tome i).

(٤) Islam and Missions, p. 257.

(٥) Gasztowtt, pp. 321-3. R. du M. M., xi. (1910), pp. 287. Sqq.

القرن الثامن عشر، باعتبار أنهم دعاة من قبل الحكومة الروسية. وقد أخذ القرغيز ينضمون تحت لواء الروس حول سنة ١٧٣١م، وتبودلت الرسائل السياسية معهم كافة باللغة التتارية قرابة ١٢٠ سنة، واهمين أنهم كانوا يشبهون تتار الفلجا من ناحية السلالة البشرية. وهناك نوع آخر من سوء الفهم من ناحية الحكومة الروسية، وهو أن القرغيز كانوا مسلمين، على حين كانوا في القرن الثامن عشر جميعا – على وجه التقريب – يدينون بالشامانية، حيث كان عدد كبير منهم لا يزالون يدينون بهذا الدين حتى منتصف القرن التاسع عشر. وفي القرن الذي ضمت فيه بلادهم إلى الإمبراطورية الروسية، عدا قليل من خاناتهم وسلاطينهم، كانت لهم معرفة ما بالدين الإسلامي، وكانت هذه المعرفة على درجة كبيرة من الاختلاط والغموض.

ولم يجد أحد مسجدًا واحدًا في أرجاء سهولة القرغيز كافة، كما لم يكن هناك أي معلم ديني يقوم بتعليم دين النبي. ويدين القرغيز بدخولهم في الإسلام إلى هذه الحقيقة، وهي أن الروس الذين عدوهم مسلمين، أصروا على معاملتهم كما لو كانوا كذلك. وقد منحوا الأموال الضخمة لبناء المساجد، وأرسل عدد كبير من (المليات) لإنشاء المدارس وتعليم الأطفال مبادئ الإسلام. وكان علماء القرغيز يتسلمون في كل يوم مقدارًا صغيرًا من النقود يقوم بنفقتهم، واستحث الآباء على إرساء أطفالهم إلى المدارس عن طريق الهدايا وغيرها من وسائل التشجيع والإقناع.

ومن الأدلة التي لا تقبل الجدل على أن الدعوة الإسلامية قد شقت طريقها في سهول القرغيز من ناحية بلاد الروسيا، هذه الحقيقة الواقعة، وهي أن هؤلاء القرغيز خاصة، الذين كانوا أكثر اتصالًا بأوروبا، هم الذين أصبحوا مسلمين أول الأمر. وقد أخذت الشامانية القديمة تسير حتى القرن التاسع عشر في بطء وتمهل، بين هؤلاء الذين طوفوا فيما جاور بلاد خيوة وبخارى وخوقند، مع أن هذه البلاد كانت بلادًا إسلامية عدة

قرون[1].

وقد يكون هذا المثل الوحيد لحكومة مسيحية شاركت في نشر الإسلام، وليس أقل غرابة من ذلك أن الحكومة الروسية في هذا العصر كانت تحاول أن تفرض المسيحية على رعاياها المسلمين في أوروبا، استمرارًا لما بذلته من جهود في القرن السادس عشر على أثر فتح خانية قزان.

وفي مستهل القرن التاسع عشر، كان كثير من القرغيز الذين يقيمون في السهول الفسيحة الممتدة جنوبًا من مقاطعة تبلسك إلى بلاد تركستان لا يزالون على الوثنية، واتصل بعض بالحكومة الروسية لإيفاد بعث تبشيري للدين المسيحي يقيم بين أظهرهم. ولكن الحكومة لم تجبهم إلى هذا الطلب بحجة أن «هؤلاء الناس كانوا من البربرية والوحشية بحيث لا يكون فهمهم للإنجيل أمرًا ميسورًا. سرعان ما سارت لنشر الدعوة جماعات أخرى لا تعتمد على حسن نية أية حكومة، كما كانت أكثر غيرة وإدراكًا واحتلت هذا الميدان واجتذبت كافة قبائل القرغيز إلى الدين الإسلامي»[2].

وبعد فتح قزان على أيدي الروس في القرن السادس عشر، تلا احتلال خانية التتار السابقة حركة رسمية للتبشير بالمسيحية، وعمد عدد من سكان الخانية الوثنيين، ونشط رجال الشرطة ورجال السلطان المدنية في تأييد أعمال رجال الكنيسة. بيد أنه، لما لم يكن القسيسون الروسيون يفهمون لغة هؤلاء الذين حولوهم إلى الإسلام، والذين لم يلبثوا أن أهملوا شأنهم، لم يكن بد من الاعتراف بأن هؤلاء الذين تحولوا حديثًا «يحتفظون في غير خجل أو حياء بكثير من العادات التتارية المرذولة، ولم يكونوا يتمسكون بالعقيدة المسيحية أو يعرفونها». ولما أخفقت العظات الروحية، أمرت الحكومة موظفيها بأن يلطفوا من هذه الحالة، ويحبسوا الناس، ويكبلوهم بالحديد، ويحولوا بذلك دون تعليم هؤلاء الذين لا يطيعون أوامر المطران برغم تعميدهم، ويثيرون مخاوفهم من ناحية العقيدة التتارية.

---

(1) The Russian Policy regarding Central Asia. An historical sketch, By Prof. V. Grigorief. (Eugene Schuyler: Turkistan, vol. ii. Pp. 405-6. 5th ed. London, 1876); Franz von Schwarz: Turkestan, p. 58. (Freiburg, 1910).

(2) Islam and Missions, pp. 251-2, 255.

وفي القرن الثامن عشر بذلت الحكومة الروسية جهودًا جديدة لتنصير القبائل الوثنية والتتار الذين ارتدوا عن دينهم، وبذلوا كثيرًا من ضروب الإقناع والإغراء لتعميدهم؛ ففي سنة ١٧٧٨ أمرت الامبراطورة كاترين الثانية بأن يوقع كل من هؤلاء الحديثي العهد بالمسيحية على إقرار كتابي يتعهدون فيه «بترك خطاياهم الوثنية، وتجنب كل اتصال بالكفار، والتمسك بالدين المسيحي وعقائده والثبات عليهما». على الرغم من هذا كله، لم يكن هؤلاء الذين أطلق عليهم «التتار» المعمدون إلا مسيحيين اسمًا، وسرعان ما أخذوا يحاولون التخلص مما بذلت الكنيسة الأرثوذكسية من الجهود التبشيرية، وتركوا المسيحية، واعتنقوا الإسلام. ولم يكن هذا الدخول في المسيحية إلا خطوة تمهيدية لدخولهم في عقيدة النبي.

وفي الحق أنه لا يبعد أن تكون أسماؤهم قد دونت في السجلات الرسمية باعتبارهم مسيحيين، ولكنهم وقفوا في ثبات وقوة في وجه أية محاولة بذلت لتنصيرهم. ويقول الكاتب في مقال شبه رسمي نشر في سنة ١٨٧٢: «إنه لحقيقة تستحق الانتباه أن سلسلة طويلة من الارتداد الواضح تتفق مع بداية الإجراءات التي اتخذت لتثبيت الداخلين في العقيدة المسيحية. ولهذا يجب أن يكون هناك سبب معقول لحالات الارتداد هذه، في نفس الوقت الذي كان من المتوقع أن يحدث خلاف ذلك».

ويظهر أن الحقيقة كانت تنطوي على أن هؤلاء التتار، لكونهم قد ظلوا دائمًا مسلمين بقلوبهم، قاوموا التدابير الفعالة التي اتخذت لتجعل اعتناقهم المسيحية الأسمى حقيقة واقعة بحال من الأحوال[١]. ولكن في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، بذلت جهود لتنصير هذه القبائل الوثنية والإسلامية عن طريق إنشاء مدارس بينهم. وكانوا يؤملون من وراء ذلك أن يجذبوا إليهم شبيبة ذلك الجيل، إذ ظهر لهم أنهم إذا لم يفعلوا ذلك، كان من المحال أن يفوزوا بإدخال المسيحية بين التتار. ذلك أن «استمالة مواطني قزان – كما يقول أستاذ روسي – أمر صعب المنال، ولكننا نستجلب نفرًا قليلًا من

---

(١) D. Mackenzie Wallace: Russia, vol. i. pp. 242-4. (London, 1877, 4th ed). R. du M. M. vol. ix. (1909), p. 249, Bobrovnikoff, p. 5. Sqq.

سكان القرى الواقعة في السهل، ونروضهم على مخافة الله، فإذا ما أصبحوا معنا فإنهم لن يعرضوا عنا أبدًا»[١]. ذلك أن القانون الجنائي الروسي كان يتضمن دائمًا عقوبات صارمة لهؤلاء الذين حادوا عن الكنيسة الأرثوذكية[٢]، ويعاقب كل شخص تثبت عليه تهمة تحويل مسيحي إلى الإسلام، بتجريده من كافة الحقوق المدنية، وبحبسه مع الأشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثماني سنين وعشر. وبرغم أوامر الحكومة نجحت الدعاية الإسلامية في جذب القرى بأسرها إلى عقيدة الإسلام ولا سيما القبائل الروسية التي تقيم في الشمال الشرقي[٣].

وتعد مدينة قزان المركز الرئيس لنشاط هذه الدعوة؛ وكان يطبع في كل سنة عدد كبير من المنشورات الإسلامية، في ذلك المكان، وتذهب المليات من الجامعات لتحويل الوثنيين في القرى وإعادة التتار، الذين كانوا قد ارتضوا التعميد، إلى الإسلام. وإن ازدياد عدد التتار المسيحيين الذين أخذوا في زيادة صفوف الإسلام، قد أثار الفزع في نفوس رجال الكنيسة الأرثوذكسية. ولكن جهودهم قد أخفقت في وقت نجاح المليات في هذه السبيل[٤]. وقد دونت الأخبار كثيرًا عن دخول الناس في هذا الدين أفواجًا، ولا سيما على أثر صدور مرسوم حرية التدين في سنة ١٩٠٥. مثال ذلك ما قيل من أن إحدى وتسعين أسرة اعتنقت الإسلام في قرية أتومڤا Atomva في سنة ١٩٠٩[٥]. وإن عددًا بلغ من الكثرة حول ٥٣.٠٠٠ نسمة أسلم بين سنتي ١٩٠٦، ١٩١٠[٦]. وقد قيل إن أكبر الفضل في نجاح هذه الدعوة يرجع إلى مستوى الحياة الأخلاقية المجتمع

---

(١) W. Hepworth Dixon: Free Russia, vol. ii. P. 284. (London, 1870).

(٢) مثال ذلك أنه «في سنة ١٨٨٣، سيق فلاحو التتار بقرية أپوزوف Apozof إلى محكمة قزان، لأنهم تركوا المذهب الأرثوذكسي. وقد صرح المتهمون بأنهم كانوا يدينون بالإسلام على الدوام. وقد حكم على سبعة منهم بالأشغال الشاقة لاتهامهم بالكفر ونفى كثير من الذين ارتدوا عن دينهم إلى سيبريا».
Anatole Leroy- Beaulieu: L' Empire des Tsars et les Russes, tome iii, p. 645, (Paris, 1889-93).

(٣) D. Mackenzie Wallace: Russia, vol. i. p. 245.

(٤) Palmieri, pp. 85-6. R. du M. M., i. (1907), pp. 162. Sq.

(٥) R. du M. M., ix, (1909), p. 294.

(٦) Id. X. (1910), p. 413. Id. i. (1907), p. 273.

الإسلامي، الذي كان أكثر رقيًا، كما يرجع أيضًا إلى شعور التآخي الذي كان يشيع في هذا المجتمع، والذي كان أكثر تماسكًا وقوة[١].

أضف إلى ذلك أن الأساليب التي لجأ إليها رجال الكنيسة الروسية وأيدتها الحكومة، لتجعل تلك الطبقة التي كان يطلق عليها التتار المسيحيون أكثر تمسكًا بالدين، قد جعلت العقيدة المسيحية أمرًا غير مألوف لديهم[٢]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى سارت الدعوة الإسلامية قدمًا في حماسة بالغة، «فقد كان كل مسلم ساذج أمي داعية إلى دينه، وعجزت القبائل الفقيرة الجاهلة الأمية من الوثنيين أو أشباه الوثنيين عن أن تقاوم قوة هؤلاء الدعاة. وفي كثير من القرى التي عمد أهلها، انطلق الرجال في زمن الشتاء يحترفون الحياكة في القرى الإسلامية. وهناك يتحولون إلى الإسلام، ثم يعودون إلى قراهم حُمسًا يجلبون معهم أفكارًا إسلامية يكون لها أثرها في بيوتهم»[٣].

ومن أهم القبائل التي تأثرت بحركة الدعوة إلى الإسلام قبيلة القوتياك Votiaks التي كان السواد الأعظم منها مسيحيًا معمدًا؛ بيد أن كثيرًا منهم أصبحوا مسلمين في القرن الثامن عشر، وفي مستهل القرن التاسع عشر. ولا يزال تأثير الإسلام آخذًا في النمو، بين هؤلاء الذين يدينون بالمسيحية وبين هذه البقية اليسيرة التي لا تزال على وثنيتها. وإن قبيلة الشيريمس Cheremiss، كالقوتياك، قبيلة من الفِنْ Finns[*]، لا يزال ربعها على الوثنية، ولكن كثيرين منها كانوا قد دخلوا في الإسلام، ولا يبعد أن يبادر معظمهم إلى الدخول في هذا الدين. وقد تجلت حركة الشيريمس إزاء الإسلام في القرن التاسع عشر؛ ومع أن كثيرين منهم كانوا مسيحيين اسمًا، فإن قراهم بأسرها دخلت في الإسلام برغم القوانين التي تحرم التحول إلى أي دين من الأديان عدا مذهب الكنيسة الأرثوذكسية[٤]. وقد أصبحوا مسلمين باتصالهم المباشر بالباشغرد والتتار الذين كانت تشبه أسرتهم

---

(١) Id, ix. P. 252.

(٢) Id, p. 249.

(٣) Bobrovnikoff, p. 12.

(*) وهي من أصل تيوتوني كانت تسكن في الشمال الشرقي من أوروبا.

(٤) Reclus, tome, v. pp. 746, 748.

وعاداتهم الاجتماعية أسرة هؤلاء وعاداتهم.

وقد بدأت هذه الخطوات أحيانًا بالتصاهر إلى المسلمين، مثال ذلك أن إحدى أسرات الشيريمس في بعض القرى تصاهرت إلى بعض الباشغرد واعتنقت ديانته. ولما كان هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام يلقون في قراهم عنتًا واضطهادًا بتسميتهم «الكلاب المختونين»، نراهم يهاجرون ويؤسسون مستعمرة جديدة على بعض أميال، كما نرى بعض ذوي اليسار من الباشغرد يعينونهم بالمال. ولكن لما كانوا يعدون وثنيين في السجلات الرسمية، لم يستطيعوا أن يحصلوا على تصريح ببناء مسجد. لذلك انتقل بعض أسرات من الباشغرد التي كانت في الأماكن المجاورة لهم إلى المستعمرة الحديثة، حتى يجعلوا عدد الأهلين بحيث يسمح لهم بالحصول على التصريح الرسمي المطلوب[١].

وطالما اتخذ مثل هذه الخطوة في القرى الأخرى التي جاء المسلمون لاستيطانها والتصاهر إلى من فيها من الشيريمس[٢]. وكانت هنالك في أحوال كثيرة حركة واضحة لنشر الدعوة، مثال ذلك أن قرية قرقول كانت من مستهل القرن التاسع عشر آهلة بالشيريمس المسيحيين. على أنه بعد منتصف هذا القرن بقليل، تحول بعض الأسرات إلى الإسلام على يد أحد الشيريمس بعد أن دخل في جماعة الملليات، وخلفه في الدعوة بعد وفاته أحد الباشغرد من أهالي قرية أخرى.

وبعد ذلك انتقل الذين دخلوا في الإسلام إلى قرى التتار والباشغرد، بعد أن احتل التتار أماكنهم، وبعد أن أصبحت القرية بأسرها تتارية في واقع الأمر، واحتفظ قليل من شبيبة الجيل بشيء من لغة الشيريمس وتصاهروا مع التتار وحدهم[٣]. وإذا تركنا هذا النشاط في تعليم الناس مبادئ الدعوة جانبًا، وجدنا تأثير التتار في الكلام والعادات بين الشيريمس منتشرًا انتشارًا ملحوظًا جدًا؛ فقد انتشرت لغة التتار بينهم، وجلبت معها أفكار الإسلام الأدبية والدينية.

---

(١) Eruslanov, pp. 3, 6.

(٢) Id. Pp. 7-8.

(٣) Id. Pp. 5-6.

ويعد إدخال الزي التتري علامة على تفوق الثقافة، وإذا لم يرتد أحد أفراد الشيريمس الزي الذي يرتديه التتار، تعرض لسخرية أول تتاري يلتقي به أو لسخرية إخوانه من الشيريمس. وهذه الحركة الثقافية تجنح إلى انتحال ديانة التتار بصفة نهائية[١]. وقد قيل إن الشيريمس قد أصبحوا بعد إسلامهم على جانب عظيم من الحماسة لنشر دينهم الجديد، كما تلقوا معونة التتار الموسرين[٢].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى ينظر الروس إلى الشيريمس نظرة احتقار، ويعدونهم جنسًا منحطًا، وينبزونهم بألقاب شائنة، حتى هؤلاء الشيريمس من المسيحيين الذين يقيمون بين أظهرهم[٣]. ولا يزال نحو ربع عدد الشيريمس على الوثنية، ولكن المؤثرات الإسلامية كانت من القوة بينهم بحيث لا يبعد أن يصبح السواد الأعظم منهم مسلمين على مر الأيام[٤].

أما الشوفاش Chuvash الذين يبلغ عددهم المليون، فقد عمدوا بأسرهم تقريبًا، ولا يزال نحو عشرين ألفًا منهم على الوثنية، ولكن الإسلام يضمهم إلى صفوفه تدريجًا، على حين أصبح بعض الشمغاش من المسيحيين مسلمين. وأصبحت البقية الباقية منهم واقعة تحت تأثير الإسلام، وقد نستدل على امتداد حماستهم نحو الذين دخلوا منهم في الإسلام من إحدى قرى الشوفاش المسيحية التي يمكن أن نتخذها مثلًا في هذا الصدد، فقد قضى قسيسها سنوات كثيرة في جمع ثلاثمائة روبل Roubles كانت ضرورية لإصلاح الكنيسة وتحولت ثماني أسرات شوفاشية إلى الإسلام، فجمع المسلمون ألفي روبل في خلال بضعة أشهر لبناء مسجد[٥].

وإن مثل هذا النشاط الحي ليعد صفة تتميز بها الدعوة الإسلامية التي كانت منبثة بين القبائل الوطنية في ذلك الحين. وكانت كل أسرة تقبل الإسلام تتلقى المعونة عينًا أو

---

(١) Id. Pp. 9, 13.

(٢) Id. Pp. 17, 20, 36.

(٣) Id. Pp. 38-9.

(٤) Bobrovnikoff, p. 22.

(٥) Id. Pp. 21-2, 31.

نوعًا؛ فالبيت يبنى للفرد، ويباع الحقل والماشية وغيرها لآخر، فإذا أسلمت أسرات كثيرة في قرية من القرى، بنى لهم مسجد، وأسست مدرسة لأطفالهم[١].

وليس لدينا إلا تفصيلات يسيرة عن انتشار الإسلام بين التتار في سيبريا، ولم ترسخ قدم الإسلام في هذه البلاد إلا بعد النصف الأخير من القرن السادس عشر، ولكن دعاة المسلمين كانوا يشقون طريقهم من حين لآخر إلى سيبريا، حتى قبل هذه الفترة، أملًا في اجتذاب الأهالي الوثنيين لقبول عقيدتهم؛ ولكن السواد الأعظم من هؤلاء الدعاة قد ماتوا موت الشهداء. وعندما انضوت سيبريا تحت لواء الحكم الإسلامي، في عهد كوتشم خان، كشف أحد الشيوخ المسنّين مقابر سبعة من هؤلاء الدعاة؛ وكان هذا الشيخ قد قدم من بخارى للبحث عنهم إذ كان يتطلع إلى معرفة شيء عن خشوع هؤلاء الشهداء وإخلاصهم في دينهم، واستطاع أن يدلي بأسماء هذا الفريق من الشهداء، وكانت ذكراهم لا تزال حتى القرن الأخير موضع تجلة واحترام لدى التتار في سيبريا[٢].

ولما أصبح كوتشم خان (الذي كان من سلالة جوجي خان، أكبر أبناء جنكيز خان) خانا على سيبريا (حول سنة ١٥٧٠)، وكان قد اكتسب حق تولية العرش، إما عن طريق قيامه بغزو البلاد، أو (على رواية أخرى) عن طريق دعوة الأهالي إياه لتولي العرش على أثر وفاة الخان السابق دون أن يعقب ذرية[٣]، بذل قصاراه في تحويل رعاياه إلى الإسلام، وأرسل إلى بخارى في طلب دعاة لمساعدته في هذه المهمة التي تنطوي على التدين والتقوى.

وقد خلّف لنا أحد الدعاة الذين قدموا من بخارى أخبارًا، وصف فيها خروجه مع أحد رفاقه إلى حاضرة كوتشم خان، على ضفة نهر إرتس **Irtish**. وهناك مات رفيقه بعد سنتين، وقفل هو راجعًا إلى وطنه لأسباب لم يتعرض هذا الكاتب لذكرها. ولم يلبث إلا قليلًا حتى عاد إلى بلاد كوتشم خان ثانية لاستئناف عمله، وبصحبته رفيق آخر، وذلك

---

(١) Id, p. 13. Islam and Missions, p. 257.

(٢) G. F. Müller: Sammlung Russischer Geschichte, vol. vii, p. 191.

(٣) Id. Vol, vii. Pp. 183-4.

حين عاود كوتشم خان بخارى بطلبه مدادًا من الدعاة[١].

كذلك قدم دعاة من قزان إلى سيبريا؛ ولكن تقدم تيار الغزو الروسي وقف جهود كوتشم خان التبشيرية، قبل أن ينجز منها شيئًا كثيرًا، وخاصة عندما وقف كثير من القبائل التي تنضوي تحت حكمه، يعارضون معارضة قوية كل المحاولات التي بذلها هذا الخان لتحويلها إلى الإسلام.

يبد أنه على الرغم من أن الغزو الروسي وقف هذه الجهود، لم يتوقف تقدم الإسلام في هذه البلاد بحال من الأحوال؛ فقد دأب المليات الآتون من بخارى وغيرها من مدن آسيا الوسطى، والتجار القادمون من قزان، على موالاة الدعوة إلى الإسلام في سيبريا. وفي سنة ١٧٤٥ تسرب الإسلام لأول مرة إلى قبائل التتار التي يطلق عليها Baraba Tatars (وكانت مساكنهم بين نهري إرتس Irish وأوب Ob)؛ ومع أن كثيرًا منهم كانوا حتى مستهل القرن التاسع عشر لا يزالون على الوثنية، أصبحوا الآن مسلمين بأسرهم[٢] – وقد سبق الكلام على إسلام القرغيز – وتاريخ معظم القبائل الإسلامية الأخرى في سيبريا على جانب كبير من الغموض، وإن كان من المحتمل أن يكونوا قد اعتقدوا الإسلام في عصر حديث.

ومما هو جدير بالذكر، تلك الأغاني الشعبية التي يتغناها القرغيز، والتي تحتل مكانة كبيرة بين وسائل الدعاية الإسلامية في الوقت الحاضر، وقد تضمنت هذه الأغاني حقائق الإسلام الأساسية، مصوغة في أسلوب قصصي أسطوري، مما جعل هذه الحقائق تصل إلى قلوب عامة الشعب في سهولة ويسر[٣].

---

(١) Radloff, vol. i. p. 147.

(٢) Jadrinzew, p. 138, Radloff, vol. i. p. 241.

(٣) Radloff, vol. i. pp. 472, 497.